د . صلاح الدين النكدلي

آراء في الدعوة والحركة

(الجزء الأول)

© Islamischer Info. Dienst Verlag

العنوان

I.I.D e.V.
P.O.Box: 100810
D-52008 Aachen
Germany

Tel: + 49 241-538373
Fax: + 49 241-538887

Email: iid@iid-alraid.com
Website: www.iid-alraid.com

1. Auflage, 06.2009

الطبعة الشبكية الأولى

جمادى الآخرة / ١٤٣٠هجري

حزيران / يونيو ٢٠٠٩ميلادي

نسخة مزيدة ومنقحة

الناشر : الدار الإسلامية للإعلام

جميع الحقوق محفوظة للدار الإسلامية للإعلام

Copyright © 2009, I.I.D e.V.
All Rights Reserved

بسم الله الرحمن الرحيم

آراء في الدعوة والحركة

الجزء الأول

د . صلاح الدين النكدلي

كتاب الرائد –١٢–

الطبعة الأولى : جمادى الآخرة ١٤١٣هـ – كانون الثاني/يناير ١٩٩٣م

الطبعة الشبكية الأولى

جمادى الآخرة / ١٤٣٠هـ

حزيران / يونيو ٢٠٠٩م

نسخة مزيدة ومنقحة

الناشر : الدار الإسلامية للإعلام

© Islamischer Info. Dienst Verlag

العنوان

I.I.D e.V.
P.O.Box: 100810
D-52008 Aachen
Germany

Tel: + 49 241-538373
Fax: + 49 241-538887

Email: iid@iid-alraid.com
Website: www.iid-alraid.com

1. Auflage, 06.2009

المحتويات

المقدّمة	٤
حديث في (البيعة) و(الجماعة)	٧
الشورى في العمل الإسلامي	١٠
أنواع الجهاد	١٧
العالمية والقطرية	٢٢
التقويم في العمل الإسلامي	٢٦
العوائق الداخلية	٣٠
من عوائق العمل الإسلامي الداخلية	٣٤
ادخلوا في السلم كافة	٣٨
جماعات الدعوة والعقيدة	٤٢
الجزئية والوقتية والارتجال	٤٥
ظاهرة الشيخ والمريد	٤٩
الحق والباطل	٥٢
الدعاة والتحديات	٥٥
افقهوا عبر الماضي ودروس الحاضر	٥٩
حاجة الدعاة إلى منهج النبوة	٦٥
السبيل إلى اجتماع الجهود	٧١
وفروا أسباب النجاح	٧٤
الواقعية في الدعوة إلى الله	٧٧
الخوف من الخطأ	٨١
الدعاة .. وفن القراءة	٨٤
أسلوب النبوة في التبليغ	٨٨
عبر قصتين :	٩٤
١- إسلام أبي ذر	٩٤
٢- معاذ وسليم	٩٧

مقدمة الطبعة الشبكية

الحمد لله .. والصلاة والسلام على رسول الله

عزيزي القاريء

بين يديك الطبعة الثانية من كتاب (آراء في الدعوة والحركة) . وتمتاز هذه الطبعة بكونها مزيدة زيادة كبيرة عن الطبعة الأولى ، وقد نشرت هذه المواضيع في مجلة (الرائد) الغرّاء ، التي تصدرها الدار الإسلاميّة للإعلام ، والمواضيع تتناول قضايا تهم التيار الإسلامي ، ويسرني أن أتلقى من القراء الكرام ما يسدد الآراء ويعين على صياغة أفضل .

أتوجه بالشكر الكبير إلى كل من ساهم في تهيئة هذا الكتاب ، ويسَّر وصوله إلى القراء ، وأسأل الله تعالى أن ينفع به ويكتب له القبول ..

والحمد لله ربِّ العالمين

مقدمة الطبعة الأولى

إنّ الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٢]

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء: ١]

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا ۞ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١]

أما بعد : فإن أصدق الحديث كتاب الله ، وأحسن الهدي هدي محمد ﷺ ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار .

تشهد الدنيا .. منذ بضعة عقود .. حركة إسلاميّة نشيطة تروم ردّ المسلمين إلى أصالتهم ، وتحريرهم من الاستعمار الفكريّ والثقافي المهيمن على جميع شعب حياة الأمّة . ولقد كان طبيعياً أن تصطدم هذه الحركة بالحواجز التي وضعها الغرب الغازي ، وأمدها بأسباب الدعم الثقافي والسياسي .. وخاصة حاجز (أنظمة الحكم) وحاجز (الأحزاب) التي تبنّت الفكر الوافد ، بصرف النظر عن العناوين والمضامين ، فكلها غريبة مستوردة –من حيث الأصل– من خارج الحدود ..!!

و لم يكن واجب تحرير عقول المسلمين من آثار الغزوة الغربية .. الواجب الوحيد الذي تصدت له الحركة الإسلاميّة .. بل وجدت نفسها أمام مهمات كبرى خطيرة .. مثل :

* واجب التصدي لتحديات (التخلف) الذي أضعف الأمة وأفقدها جانباً كبيراً من مناعتها .
* واجب تحرير الأراضي التي ما تزال تئن من سيطرة العدوّ الخارجي .. كما هو الحال في درّة العالم الإسلامي (فلسطين) .
* واجب مواجهة (التجزئة) وآثارها المدمّرة التي فرضها على المسلمين أهواء قوم منهم التقت برغبات قوى خارجيّة حاقدة .
* واجب تحرير إرادة الأمّة المسلمة من هيمنة القوى المستكبرة في الأرض .. والتي تفرض على المسلمين ألواناً من التبعية!! ..

من هذه الإشارات يتضح أن الحركة الإسلاميّة المعاصرة تتحرك في دائرتين : (دائرة وعي الذات) و(دائرة مواجهة الغزاة) :

أما وعي الذات .. فإنه يتطلب بذل جهود مضنية تضع في أيدي أبناء الحركة الإسلاميّة (المعرفة الأصيلة) القادرة على تمييز الإسلام الموحى به من عند الله تعالى .. مما علق به وليس منه .. والقادرة في الوقت نفسه على (الاجتهاد) الملتزم بروح ونصوص الوحيين : القرآن والسنة .

ووعي الذات يحتاج إلى عامل (الزمن) وإلى عامل (الجهد البصير) ، لأن العودة إلى الأصالة الإسلاميّة .. بعد قرون الجهل والتخلف ، وفي ظروف الغزوة الغربية .. تقف دونها عقبات قديمة وأخرى جديدة .. وهذه العقبات تعبر عن نفسها بالحوار الساخن الذي يدور بين فصائل الحركة الإسلاميّة .. فالمرحلة التي يمر بها العالم الإسلامي تفرض على الدعاة جواباً على سؤالين :

١– ماذا نأخذ من الماضي وماذا ندع ؟ وبأي مقياس ؟
٢– ما الذي يصح أن نأخذه من إفرازات الحاضر وما لا يجوز ؟

وهذا الحوار هو وسيلة التصفية والتنقية والضبط .. وأملنا كبير في أن يكون أكثر هدوءاً وأكثر عمقا .

وأما مواجهة الغزاة .. فإنها تفرض على الحركة الإسلاميّة أن تفهم العالم والعصر فهماً عميقاً ؛ يؤهلها لوضع خطة تحريرية مستوعبة لشروط المواجهة ومتطلباتها .. ويؤهلها أيضاً للعمل على توفير (القوة) في جميع مجالات المواجهة .. قوة الفكر ، وقوة العلم ، وقوة التنظيم ، وقوة التخطيط .. وقوة .. وقوة ... وحتى تصل الحركة الإسلاميّة إلى نضج في هذا المجال فإنها بحاجة إلى (الحوار) الهادف بين أبنائها .

وهذا الكتاب مساهمة في الحوار على جبهتي : (وعي الذات) و(مواجهة الغزاة) .. وهو يضع الأيدي على عدد من المسائل التي ينبغي أن يلتفت إليها العاملون والدعاة إلى استئناف الحياة الإسلاميّة الطاهرة الكريمة ، وإقامة الحكم الإسلامي العادل الرحيم في ربوع العالم الإسلاميّ .

بقي أن أشير إلى أن هذه المواضيع نشرت في مجلة (الرائد) ، ورأى محبون أن تجمع في كتاب ، فاستجبت لذلك رجاء في ثواب الله عزَّ وجلَّ ، ولعل هذه البحوث تنفع من يطلع عليها ، وأسأل الله عزَّ وجلَّ أن يكتب لهذا الجهد القبول ، والحمد لله ربّ العالمين

والله أكبر والعاقبة للمتقين

صلاح الدين نكدلي

ضرورة تصحيح المصطلحات والمفاهيم

حديث في (البيعة) و(الجماعة)

إنّ تحرير (المصطلحات) و(المفاهيم) الإسلاميّة من المعاني التي لحقت بها : خلال العصور السالفة ، أو في هذا العصر ، يعد من أخطر الواجبات التي ينبغي أن ينهض إليها العاملون للإسلام بجدّ وأهليّة .

ولا نعني بتحرير المصطلحات والمفاهيم الإسلاميّة من المعاني التي لحقت بها : تلك التي ليست من أصل الشريعة الغرّاء .. فهذا أمر لا ينازع فيه مؤمن جاد واع .. وإنما نعني بذلك : تحرير المصطلحات والمفاهيم الإسلاميّة مما ينسب إليها من معانٍ مشروعة ، ولكن حين توضع في غير إطارها ، أي في إطار نصوص أخرى ، فإنها تحمل غير معناها ، فيؤدي هذا الصنيع إلى مشكلات فكرية وأخلاقية خطيرة .

إنّ في صفوف العاملين للإسلام اليوم مجموعة من المفاهيم التي يجب أن تصحح ، وإنّ عدم تصحيحها يعني ببساطة : الاستمرار في ترسيخ (العوائق) التي تفرق القلوب ، وتشتت الجهود ، وتمنع من الاستفادة الجادّة البصيرة من تجارب العاملين للإسلام في أنحاء الأرض ، فضلاً عن الاستفادة من تجارب غيرهم! .

وإنّ من جملة ما يجب تصحيحه لدى الكثرة الكاثرة من أبناء الحركة الإسلاميّة : مفهوم (**البيعة الواجبة**) التي يأثم المسلم بتركها ، ومفهوم (**الجماعة**) التي يكون مفارقها آثماً عند الله عزَّ وجلَّ ، وإذا مات كانت ميتته جاهلية .

ولبيان ما نعنيه نقول : حين وصل العالم الإسلامي بجهله وتخلفه وتفرقه إلى هاوية السقوط ، تمكّن الغرب من إخضاع معظم أجزاء بلاد المسلمين لسلطانه العسكري والسياسي والحضاري ، فكانت الصدمة عنيفة . فاستيقظ بتأثيرها رجال أخذوا على عاتقهم دعوة الأمة إلى النهوض من عثراتها ، وبذلوا جهوداً مشكورة في عملية إعادة الثقة بالإسلام ؛ أنه (منهج حياة متكامل) بعد أن اهتزت هذه الحقيقة في القلوب والعقول .

استجاب عدد من المسلمين لدعوة أولئك الروّاد ، وتجمعوا حولهم ، فولد بذلك ما نسميه (الحركة الإسلاميّة المعاصرة) التي ظهرت على الساحة متمثلة في عدد من (التنظيمات) .. وكان طبيعياً أن تتحرك (التنظيمات) باتجاه دعوة المسلمين إلى الالتفاف حولها وضم جهودهم إلى جهودها .. ولكي تقيم الدليل على وجوب التعاون من أجل تحقيق الأهداف الإسلاميّة الكبرى عمدت إلى نصوص الإسلام –وهذا حق– تبرز منها ما تعتقد أنه يقيم الحجة ويداوي العلل .

ولكن إبراز نصوص معينة من الوحي في ظروف شاذة ليس أمراً سهلاً ، فهذا العمل يفرض على المتصدين له أن يكون لديهم علم .. شامل .. متوازن .. بالإسلام كما أنزله الله عزَّ وجلَّ ، ومعرفة كافية بالواقع ..

ضمن ظروف الفترة الزمنية التي تمر بها البشرية .. ثم بعد ذلك قدرة على الربط بين النصوص والواقع ، بحيث لا يتم إسقاط الواقع بغير علم على نصّ من النصوص ، أو إسقاط نصّ بجهل على واقع ما .. فينشأ عن ذلك انحرافات تتفاوت في درجة خطورتها .

وفي جملة النصوص التي أبرزت في ساحة العمل الإسلامي الحركي ، وكان لها نتائج تربوية خطيرة ، تلك التي تحض على (البيعة) وتأمر بالتزام (الجماعة) . والنصوص في هذه المعاني كثيرة ، فنكتفي بذكر بعضها مع الإشارة إلى مكمن الخطر في فهم ما فيها من معان :

روى مسلم عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « **مَنْ خَلَعَ يَدًا مِنْ طَاعَةٍ ، لَقِيَ اللَّهَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ حُجَّةَ لَهُ ، وَمَنْ مَاتَ وَلَيْسَ فِي عُنُقِهِ بَيْعَةٌ ، مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً** » .

ورواه الحاكم بلفظ : « **مَنْ خَرَجَ مِنَ الْجَمَاعَةِ قِيدَ شِبْرٍ ، فَقَدْ خَلَعَ رِبْقَةَ الإِسْلاَمِ مِنْ عُنُقِهِ حَتَى يُرَاجِعَهُ ، وَمَنْ مَاتَ وَلَيْسَ عَلَيْهِ إِمَامَةٌ وَجَمَاعَةٌ فَإِنَّ مَوْتَتَهُ مَوْتَةٌ جَاهِلِيَّةٌ** » .

وروى مسلم وأحمد والنسائي حديث أبي هريرة رضي الله عنه المرفوع : « **مَنْ خَرَجَ مِنَ الطَّاعَةِ ، وَفَارَقَ الْجَمَاعَةَ ، فَمَاتَ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً ، وَمَنْ قَاتَلَ تَحْتَ رَايَةٍ عِمِّيَّةٍ ، يَغْضَبُ لِعَصَبَةٍ ، أَوْ يَدْعُو إِلَى عَصَبَةٍ ، (أَوْ يَنْصُرُ عَصَبَةً) فَقُتِلَ ، فَقِتْلَةٌ جَاهِلِيَّةٌ ، وَمَنْ خَرَجَ عَلَى أُمَّتِي يَضْرِبُ بَرَّهَا وَفَاجِرَهَا ، وَلاَ يَتَحَاشَى مِنْ مُؤْمِنِهَا ، وَلاَ يَفِي لِذِي عَهْدٍ عَهْدَهُ ، فَلَيْسَ مِنِّي وَلَسْتُ مِنْهُ** » .

هذه النصوص ، وما ورد في معناها ، تطرح قضايا أساسية في فهم طبيعة العمل الجماعي في عصرنا .. أبرزها قضيتان :

القضية الأولى :

ما البيعة الواجبة التي يأثم المسلم بتركها ؟

١- هل هي بيعة الشيخ أو رئيس التنظيم الإسلامي ؟

ومن هو هذا الشيخ أو رئيس التنظيم المؤهل للبيعة ؟ فالشيوخ كثيرون والتنظيمات متعددة.

٢- أم أن هذه البيعة التي يأثم المسلم بتركها تكون للسلطان المسلم المقيم لشرع الله عزَّ وجلّ ؟

وإذا كان هذا هو المعنى المتعين ، و لم يكن للمسلمين سلطانهم المؤهل للبيعة الشرعية الواجبة ، فهل يلحقهم الإثم في هذه الحالة ؟ أم أنهم يأثمون إذا قام السلطان المسلم و لم يبايعوه ؟

إنّ الذي يظهر لنا من مجموع نصوص (البيعة) أن البيعة الواجبة إنما هي (بيعة السلطان المسلم) وهذا الواجب يأثم المسلم بتركه مع القدرة عليه ، فإن عجز أو لم تكن الشروط الموجبة متوفرة انتفى الإثم ، والله أعلم .

والذي دعانا إلى الحديث عن (البيعة) كثرة ذكر أحاديث البيعة في العمل الإسلامي الجماعي ، وكثير من (التنظيمات) تورد هذه الأحاديث للتأثير على الآخرين وإقناعهم بضرورة الانتظام في صفوفها ، فينشأ عن ذلك اقتناع بأن جميع الذين ليس في عنقهم بيعة كبيعة (التنظيم) آثمون ، ويُخشى أن يموتوا ميتةً جاهلية!! وهذا خطأ في الفهم يؤدي إلى مواقف متشنجة .

القضية الثانية :

ما المقصود بـ (الجماعة) التي يأثم المسلم بمفارقتها ؟

١- هل المقصود (التنظيمات) الموجودة في عصرنا ، والموزعة في أرجاء الأرض ؟

٢- أم أن المقصود (جماعة المسلمين المجتمعين على بيعة سلطان مسلم) ؟

والذي يظهر من النصوص أن المعنى المتعين لـ (الجماعة التي يأثم المسلم بمفارقتها) هو (جماعة المسلمين الذين على رأسهم إمام مسلم) .

إنّ إبراز هذا المعنى ضروري في هذه الأيام ، لأن النظر إلى (التنظيم) على أنه المقصود بـ (الجماعة) الواردة في النصوص يسيطر -عملياً- على مواقف ومشاعر الكثرة الكاثرة من الذين يتحركون في إطار التنظيمات الإسلاميّة المعاصرة .. ويظهر هذا الفهم الخاطئ في أجلى صوره حين يترك فرد أو مجموعة تنظيماً من التنظيمات القائمة .. وهذا يؤدي إلى مآسٍ نفسيةٍ وأخلاقيةٍ مدمرة .

لذلك فإننا نؤكد باستمرار على أن كلّ تنظيم من التنظيمات ، أو حركة من الحركات ، أو جماعة من الجماعات ، إنما هي (جماعة من المسلمين) ، وليسوا -متفرقين أو مجتمعين- جماعة المسلمين . وأن الذي لا ينتسب إلى تنظيم إسلاميّ أو حركة إسلاميّة .. لا يكون مفارقاً للجماعة ، وإذا مات لم تكن ميتته جاهلية ..

كما يدعونا انتشار الفهم الخطأ لمعنى الجماعة التي يأثم المسلم بمفارقتها إلى التأكيد على أن الأخوّة بين المسلمين إنما هي بأصل الإيمان ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ... ﴾ [الحجرات: ١٠] ، وليسوا إخوة بانتمائهم لتنظيم ما أو لحركة من الحركات .

وينشأ عن هذا أنه يجب أن يعامل معاملة المؤمن كل من تشهد له نصوص الإسلام أنه من المسلمين سواء كان في تنظيم أم كان غير منظم .

وبعد :

فما ذكرنا في السطور السابقة لمس عدداً من القضايا لمساً خفيفاً عسى أن يكون في الإشارة ما يغني عن العبارة .

ولئلا يُفهم من بعض ما سبق أننا نحط من مكانة العمل الجماعي في ظروف عصرنا ، والتي تفرض على المسلمين واجبات لا ينهض بها فرد من الأفراد مهما كان موهوباً ، بل ولا جماعة من الجماعات .. فإننا نؤكد على ما يأتي :

■ إنّ التعاون على البرّ والتقوى من أوجب الواجبات في الإسلام .. والنصوص كثيرة في ذلك ، منها قول الله تعالى : ﴿ ... **وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ** ... ﴾ [المائدة: ٢]

■ وإنّ الأمر بالتعاون على البرّ والتقوى يعني ببساطة أن هناك واجبات لا تتحقق إلاّ باجتماع القلوب والجهود ، واجتماع الجهود ينشأ عنه (تنظيم) .

■ ولا يقوم التنظيم إلاّ على عهود ومواثيق ، فيلتزم كلّ فرد فيه بإلزام نفسه بواجبات ، إذا قام بها تحققت الفوائد المرجوة . ومن ألزم نفسه بعهد وجب عليه الوفاء في غير إثم .. قال الله تعالى واصفاً عباده المؤمنين : ﴿ ... **وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا** ... ﴾ [البقرة: ١٧٧] هذا ما نؤمن به وندعو إليه .

■ ونريد في الوقت ذاته أن تكون الحركة الإسلاميّة المعاصرة راشدة في فهمها ، وفي أخلاقها ، وفي تصرفاتها .. ومن الرشد إنزال كل نصّ من نصوص الإسلام في مكانه الشرعي .

الشورى في العمل الإسلامي

تعريف :

الشورى لغة : من (شار) ولها معنيان :

١- يقول ابن منظور في (لسان العرب - ١٠٣/٦) :
(شار العسل يشوره شوراً ، إذا استخرجه من الوقبة واجتناه)

٢- ويقول القرطبي في (الجامع لأحكام القرآن - ٢٤٩/٤) : (قال أهل اللغة : الاستشارة مأخوذة من قول العرب : شرت الدابة وشورتها ، إذا علمت خبرها بجري أو غيره) .

من هذا الأصل اللغوي يلوح لي أن الشورى -اصطلاحاً- تعني : **استخراج الرأي من أهل الاختصاص بقصد التوصل إلى الصواب أو إلى موقف قريب منه .**

الشورى ضرورة بشريّة :

إنّ المتأمل في الجماعات البشريّة ، سواء الكبيرة منها أو الصغيرة ، يدرك أن هذه الجماعات تقف أمام واجبات مشتركة ، وتعترضها مشكلات كبرى ، وأنّها لكي تنهض بالواجب وتواجه التحديّات فإنها تلجأ إلى التشاور والمذاكرة في القضايا المهمة ، وترى أن هذا لا يتحقق إلاّ عن طريق (المؤسسات) أو (الأجهزة) التنظيمية التي تمثل في الجماعات (جهاز التفكير ، والتقدير ، والتقرير) بصرف النظر عن صورة هذه المؤسسات وصلاحياتها في الجماعات . والقرآن الكريم بيّن لنا أن تبادل الرأي في القضايا المشتركة الهامة ضرورة يشعر بها الناس سواء كانوا مسلمين أم غير مسلمين .. وأضرب أمثلة :

- استشارة ملكة سبأ أهل شوراها في رسالة سليمان عليه السلام : ﴿ **قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ** ﴾ [النمل: ٣٢] .

- استشارة فرعون ملأه ، بعد ما رأوا الآيات ، ما يفعل بموسى ؟ :

﴿ **قَالَ لِلْمَلإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ۞ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ۞ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ۞ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ** ﴾ [الشعراء: ٣٤-٣٧] .

- تشاور أهل مكة فيما يفعلونه برسول الله ﷺ : ﴿ **وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ** ﴾ [الأنفال: ٣٠]

مع نصوص القرآن والسنة :

ونذكر من آيات القرآن الكريم ما ورد فيها موضوع الشورى صراحة ، ونقف في ظلالها وقفات لطيفة تساعدنا في توضيح المسألة التي نرمي إلى بيانها :

١- يقول الله تعالى في سورة الشورى واصفاً عباده الصادقين :

﴿ **فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۞ وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ۞ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ۞ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ** ﴾ [الشورى: ٣٦-٣٩]

وأرى من المفيد تسجيل الملاحظات الآتية من وحي هذه الآيات :

أولاً : إنّ كون سورة الشورى من السور المكية يعني ببساطة أن حصر الشورى في إطار السياسة والحكم خطأ .. لأن هذه السورة نزلت قبل قيام الكيان السياسي للمسلمين (الدولة) .. وعليه :

فالشورى مبدأ عام يشمل جميع أنشطة الإنسان التي تحتاج إلى إعمال الرأي في ضوء النص والواقع .

ثانياً : الشورى نظام للتفكير والتقدير والتقرير الجماعي يقوم على الشعور بمسؤولية الرأي أمام الله عزَّ وجلَّ ، والذي يمارس الشورى في العمل الإسلامي يجب أن يتصف بما ذكرته آيات سورة الشورى ، ومن ذلك :

- التجرّد من حظوظ النفس .
- والبعد عن آثام القلب وآثام الجوارح .
- وتعظيم شعائر الله تعالى .

هذه المعاني وغيرها ، المطلوبة شرعاً ، تُنبت في القلب (التقوى) التي تضبط الرأي وتثمر الحكمة .

ثالثاً : الالتزام بنتائج الشورى من قِبَل من يهمهم الأمر واجب ، بصرف النظر عن صورة الوصول إلى القرار النهائي في المسائل المطروحة للتشاور .

٢- ويقول الله عزَّ وجلَّ مخاطباً الرسول ﷺ :

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [آل عمران: ١٥٩] .

ونتوقف في ظلال هذه الآية لتسجيل الملاحظات الآتية :

أولاً : نزلت هذه الآية بعد الذي وقع يوم أحد ، ومعلوم من السيرة أن الرسول ﷺ تشاور مع أصحابه في شأن الخروج للقاء العدو أو البقاء في المدينة .. وأن النبي ﷺ كان يرى مواجهة العدوّ في المدينة .. ولكنه نزل على رغبة جمع من الصحب ، وفيهم الشباب ومن لم يشهدوا بدراً ، وخرج إلى لقاء العدو .. وكان من أمر الرماة ما كان .

نزلت هذه الآية لتقول للرسول القائد ﷺ : (دم على المشاورة وواظب عليها كما فعلت قبل الحرب في هذه الواقعة ، وإن أخطأوا فيها ، فإنّ الخير كلّ الخير في تربيتهم على المشاورة بالعمل)[1] **فالشورى مسألة أساسية في البنيان الجماعي الإسلامي ، ولا يصح أن تلغيها أو تهمشها الأخطاء .. مهما كان جسيمة ..** وإلى هذا أشار سيد قطب فقال :

(وكان الله يعلم أن خير وسيلة لتربية الأمم وإعدادها للقيادة الرشيدة ، أن تربى بالشورى ، وأن تدرب على حمل التبعة ، وأن تخطئ مهما يكن الخطأ جسيماً وذا نتائج مريرة ، لتعرف كيف تصحح خطأها ، وكيف

(1) مختصر تفسير المنار ص ٤٢٦ .

تحتمل تبعات رأيها وتصرفها .. واختصارُ الأخطاء والعثرات والخسائر في حياة الأمة ليس فيها شيء من الكسب لها ، إذا كانت نتيجته أن تظل الأمة قاصرة كالطفل تحت الوصاية)[٢] .

ثانياً : الشورى حق الجماعة ، وليست منحة يهبها من بيده السلطان ، كما أن وجود القيادة الراشدة لا يبيح منع الجماعة من ممارسة حقها في الشورى . والدليل على ذلك قيادة الرسول ﷺ المؤيد بالوحي .. فقد أُمر بالإحسان إلى من معه وبالاستغفار لهم .. وأن يستمر في استشارتهم .. ففي تجارب الميدان تعليم كبير للإنسان .

ثالثاً : هل يعني (العزم) في قوله تعالى : ﴿ **فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ** ﴾ أن الشورى مُعْلِمَة للأمير : أي إذا استقر رأيك بعد التشاور على أمر فامض إليه ، وعلى من معك الطاعة ، وإن كان الذي تختاره مخالفاً لرأيهم . أو لرأي غالبية أصحاب الرأي فيهم . أم أن الشورى مُلْزِمَة للأمير : أي عليه الالتزام برأي أصحاب الرأي في الجماعة سواء وافق رأيهم رأيه أم خالفه ؟

وهذه المسألة بحاجة إلى وقفة تأمل ، لأنها تمثل ركناً في عملية الشورى . ففي صفوف الحركة الإسلاميّة المعاصرة يشيع رأي مفاده أن الشورى معلمة لأمير أو رئيس جماعة الدعوة وليست ملزمة ، ويرى أصحاب هذا الرأي أن فهمهم هو الحكم الشرعي الوحيد ، ويغمزون في علم من يرى خلافه ، وربما نالوا من صفاء ولائه لدينه ..

ويذكر أصحاب هذا الرأي أدلة على صواب ما يرون .. ومن المفيد ذكر أبرز أدلتهم وبيان رأينا في استنباط ما ذهبوا إليه على أنه الفهم الوحيد ..

أ– قالوا : قوله تعالى : ﴿ **وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ** ﴾ . فالآية أضافت الشورى إلى المسلمين ﴿ **وَشَاوِرْهُمْ** ﴾ بينما أضافت العزم ﴿ **فَإِذَا عَزَمْتَ** ﴾ إلى الرسول ﷺ ، ويأخذ حكمه كل مسؤول عن عمل جماعي . فالرأي الأخير هو ما يراه الأمير .

ويظهر لي أن هذا الاستنتاج لا يسلم به على إطلاقه .. فالآية أمرت الأمير بأن يستشير أصحابه .. فإذا توصل إلى رأي من خلال الشورى .. فليمض إلى العمل .. والآية لم توضح الصورة التي تستشار بها الجماعة ، كما أنها لم تذكر مستند (العزم) هل رأي الأمير وإن خالف أهل الشورى ، أم رأي أهل الشورى ؟ . فالآية ليست قطعية الدلالة في هذا الموضوع .

ب– قالوا : وإصرار أبي بكر الصديق رضي الله عنه على قتال أهل الردّة ؛ مخالفاً بذلك رأي غالبية الصحابة الذين رأوا أن الوقت غير مناسب ، ولأن في المرتدين من يقول : لا إله إلاّ الله ولكنه امتنع عن دفع الزكاة .. هذا الإصرار من الصديق ، وطاعة الصحب له ، دليلٌ على أن الشورى مُعلمة فقط .

---

(2) في ظلال القرآن ، تفسير الآية ١٥٩ من آل عمران .

وهذا الفهم لا يسلَّم به ، ولنترك الإمام البخاري يحدثنا عن هذا الحادث الخطير ، فقد ذكر في صحيحه ، في (باب قوله تعالى ﴿ **وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ** ﴾ ، ﴿ **وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ** ﴾) ما نصه : (وكانت الأئمة بعد النبي ﷺ يستشيرون الأمناء من أهل العلم في الأمور المباحة ليأخذوا بأسهلها . فإذا وضح الكتاب أو السنة لم يتعدوه إلى غيره اقتداء بالنبي ﷺ ، ورأى أبو بكر قتال من منع الزكاة ، فقال عمر : كيف تقاتل وقد قال ﷺ « **أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا : لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ ، فَإِذَا قَالُوا : لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ ، عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلاَّ بِحَقِّهَا وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ** » ؟ .

فقال أبو بكر : والله لأقاتلن من فرق بين ما جمع رسول الله ﷺ ، ثم تابعه عمر . فلم يلتفت أبو بكر إلى مشورة إذ كان عنده حكم رسول الله ﷺ في الذين فرقوا بين الصلاة والزكاة ، **وأرادوا تبديل الدين وأحكامه** ، وقد قال النبي ﷺ : « **مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ** »[٣] .

فأبو بكر أقنع الصحابة بصواب رأيه المعتمد على النص ، فلم تكن طاعتهم لأن أبا بكر أصرّ على رأيه .. كيف وهذا عمر ينكر عليه رأيه لاعتقاده أنه يخالف النصّ النبوي ؟! . ويؤيد رأي أبي بكر ما رواه الشيخان من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: « **أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ، وَيُقِيمُوا الصَّلاَةَ ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ ، فَإِنْ فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلاَّ بِحَقِّهَا وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ** » ، فلما ظهرت للصحابة قوة دليل الصديق تابعوه .

ت– قالوا : والقول بأن الشورى يصح أن تكون ملزمة زعم جديد ، ولعله من آثار الغزوة الغربية المعاصرة التي صدرت إلينا نظرتها السياسية والاجتماعية والاقتصادية ..

وهذا الإطلاق تَرِدُ عليه ملاحظات ليس هنا محل ذكرها مفصلة ، وأكتفي بذكر ثلاثة منها :

الملاحظة الأولى : الثابت من رواية الشيخين وغيرهما أن النبي ﷺ كان كثير المشاورة لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما ، وذكر الحافظ ابن حجر في (فتح الباري – ٣٤٠/١٣) قول النبي ﷺ لأبي بكر وعمر : « لو أنكما تتفقان على رأي واحد ما عصيتكما في مشورة أبداً » وقال عن سنده : لا بأس به .

فهذا يشير بوضوح إلى جواز إلزام الأمير في العمل الجماعي نفسه برأي أهل الشورى ، ومن باب أولى التزامه بذلك إذا كان العقد الذي بينه وبين الجماعة ينص عليه .

الملاحظة الثانية : لم أعثر من خلال تتبعي للسيرة النبوية على موقف شوري خالف فيه رسول الله ﷺ رأي أصحاب الرأي .. وأذكر هنا مثالين :

---

(3) وانظر « فتح الباري » (٣٣٩/١٣) .

١-استشارته ﷺ لمن خرج معه لاعتراض غير قريش في مواصلة السير إلى ملاقاة الجيش القرشي بعد فوات القافلة .. فأجابه المهاجرون إلى ما أراد ، ولكنه لم يكتف بذلك وأصر على معرفة رأي الأنصار الذين أعطوا موافقتهم بلسان سعد بن معاذ[٤] .

٢-ويوم الخندق رأى النبي ﷺ أن يعطي غطفان ثلث ثمار المدينة على أن يرجعوا ، وكتب لهم كتاباً بذلك، على أن يستشير الأنصار ، فلما استشار قيادتهم المتمثلة بالسعدين : سعد بن معاذ ، وسعد بن عبادة ، قالا : (والله ما نعطيهم إلاّ السيف) ، فرجع الرسول ﷺ عن رأيه .

الملاحظة الثالثة : ولو نظرنا بعين أصول الفقه إلى الشورى لبرز لنا مصطلح (المصالح) وهي ثلاثة أقسام :

١- **مصلحة معتبرة شرعاً** ، فهي صالحة إلى يوم القيامة .

٢- **مصلحة مهدورة شرعاً** ، فهي فاسدة إلى يوم القيامة .

٣- **مصلحة مرسلة** ، وهي التي لم يأت نصّ باعتبارها أو إهدارها .

فإذا طبقنا ما سبق على الشورى يظهر لنا بجلاء :

- أن الشورى اعتبرها الشرع ، فشرعها وأمر بها .
- وأن الشرع لم يذكر صورة محددة لممارسة الشورى ، وعليه فصورة نظام الشورى التي تأخذ بها الجماعة مصلحة مرسلة يجوز أن تختلف باختلاف الزمان ، والمكان ، والإنسان .

فلو رأت جماعة ما أن تلزم أميرها ، فمن دونه ، برأي أغلبية أهل الرأي عندهم ، كان لهم ذلك من غير شبهة ، ويستأنس لهذا الرأي بما قاله الطبري - ٢٥٢/٤) في تفسير قوله تعالى : ﴿ **وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ** ﴾ : (يتشاورون بينهم ثم يصدرون عمّا اجتمع عليه ملؤهم) ، وبما قاله الماوردي في (الأحكام السلطانية) ص ١٠١: (إذا اختلف أهل المسجد في اختيار الإمام عمل على قول الأكثرية) .

خلاصة وبيان

وفي الختام نأتي إلى التركيز على عدد من المعاني التي ظهرت لنا من خلال عرضنا الموجز لمسألة الشورى .. مع زيادة وتحديد اختيار ..

١-يجب أن تكون الشورى سمة بارزة في الجماعة المسلمة .. سواء تمثلت في دولة أو حركة أو جمعية أو أسرة ..

(4) في رواية مسلم « سعد بن عبادة » وعند غيره « سعد بن معاذ » ولعل هذا هو الصواب ، فإن سعد بن عبادة لم يشهد بدرا . وحاول الحافظ ابن حجر أن يجمع بين الروايتين ، فانظره في (فتح الباري -٢٨٨/٧) .

٢-ومن مصلحة الجماعة أن تشجع الآراء البناءة على الظهور بالصورة المناسبة .. فليس من منهج الإسلام تربية المسلم على أساس (أرح نفسك من التدبير ، فما قام به غيرك لا تقم به بنفسك) ويرفض الإسلام العظيم من المسلم أن يتحول إلى (جهاز استقبال) ليست لديه قدرة على أي نوع من الإرسال .

٣-وشرعُ الله تعالى يطالب من يمارسون العمل الجماعي أن يعتمدوا صورة للشورى تناسب ظروف العمل زماناً ، ومكاناً ، وإنساناً ، لكي تحقق الشورى أغراضها .. ولا يصح إهمال هذا الشأن الخطير ، أو التهوين منه ، ولا يمكن أن يتحقق هذا المطلب إلاّ إذا أدرك العاملون أن التصرف السليم فرع عن التصور الصحيح ..

٤- ولا يوجد مسوِّغ للنـــزاع حول : هل الشورى ملزمة أم معلمة ؟ ما دام الشارع الحكيم لم يحدد صورة لكافة الأجيال ومختلف الظروف والأحوال .

ولا يخفى أن الصورة التي تمارس الشورى من خلالها ؛ تعكس تربية محددة ، وينبغي أن يؤخذ بها القادة والأفراد .. ومن هنا كان ضرورياً أن يتم اختيار صورة مثمرة ملتزمة بضوابط الشرع ، لكي يتربى العاملون عليها حتى يتعاملوا معها بإيجابية .

٥-ويجب أن نأخذ العبرة من الأخطاء التي تقع أثناء ممارسة الشورى .. ولا يجوز إلغاؤها بتفسيرات تعطل النص وتحرم الجماعة من بركات العمل به .

ولقد آن الأوان لحملة رسالة الإسلام في هذا العصر .. أن يدركوا أنه من التجربة -التي تحتمل الصواب كما تحتمل الخطأ- يتعلم المرء ويكشف عن خِلاله وأخلاق من حوله .. وأن الإخلاص مع العلم يدفعان المؤمن الصالح إلى تصويب المسيرة وإصلاح الخلل .. ويمدانه بالقوة على متابعة العمل المنتج .

٦-والشورى خلق إسلامي يدفع المؤمن إلى البحث عن الحق ، وتقديم النصيحة ، ولا يجوز بحال من الأحوال أن تكون عملية الشورى مسرحاً للتحزب ، والمشاكسة وتكوين المحاور .. كما هو الحال في المؤسسات الديمقراطية الغربية .

٧-والذي نراه .. في ظروف عصرنا .. أن يأخذ العمل الإسلامي بالشورى الملزمة ، وأن يعمم هذا المنهج في جميع مؤسساته الصغيرة والكبيرة .. وحتى يصبح هذا الأمر سجيّة لدى أبناء هذا الجيل من المسلمين ، فإنه يحتاج إلى صبر جميل وترشيد مستمر .. والله المستعان .

أنواع الجهاد

من عشرات السنين والحديث عن (الجهاد) يشغل حيّزاً كبيراً من اهتمام العاملين في الحقل الإسلامي .. فالمرحلة التي يعيشون أيامها ويتجرعون آلامها مفعمة بتحديات كبيرة خطيرة ؛ تزداد مع الأيام حدّة وشراسة واتساعاً في المساحة .

وكيف لا يكون (الجهاد) الشغل الشاغل للعاملين المخلصين وهم يرون –من جملة ما يرون– :

- أجزاء عزيزة من بلادهم يستولي عليها غرباء حاقدون يسومون أهلها أنواع الظلم والهوان .
- ومساحات شاسعة من عقول أبناء المسلمين يهيمن عليها فكر دخيل شوه شخصيتهم وأصابهم بالشلل في كلّ مجال .
- وشريعة الله عزَّ وجلَّ تصادر في بلاد المسلمين ، وتحارب ، ويحكم المسلمون بمذاهب كفر وفساد .
- وتبعية للقوى الفاسدة المفسدة في الأرض تسيطر من خلالها على الفكر والحياة والثروات .. وهل في المسلمين الواعين من لا يدرك أبعاد (التبعية) في الغذاء ، والسلاح ، والدواء .. على سبيل المثال ، وأثر ذلك في حياة الأمة ؟! .

أمام التحديات المذكورة ، وغيرها ، نهض الذين شعروا بالمسؤولية إلى تلمس سبيل التحرر من كل القيود وكل القوى .. وكانت المفاجأة كبيرة حين لمس هؤلاء أن العقبات الكأداء والصعاب الكبيرة لا تصدر عن القوى الخارجية .. وإنما عن أنظمة الحكم القائمة في بلاد المسلمين ، وعن الأحزاب التي قامت على الفكر الدخيل .. ونشأ عن الاحتكاك بين أصحاب الفكر الأصيل وأتباع الفكر الدخيل .. صدامات .. كان لها أثرها البعيد في فكر الدعاة إلى الإسلام وفي طريقة عملهم .

وكان (الجهاد) من أبرز المصطلحات الإسلاميّة التي سرى إليها أثر الصدام مع الأوضاع القائمة .. وكاد معناه ينحصر في (القتال) وفي الثورة على الحكام ، لدى الكثرة الكاثرة من الشباب المسلم ، بحيث أصبحت الحاجة ماسة إلى بيان (حقيقة الجهاد) في الإسلام .

وحقيقة الجهاد في الإسلام لا تحيط بها صفحات في كتاب .. هذا ما نعترف به .. ولكن حسبنا أن نشير هنا إلى معاني الجهاد وضرورة إنزال كل معنى في مكانه المناسب .

ونستهل الكلام عن الجهاد بكلمة نيرة لابن تيمية رحمه الله :

(الجهاد : حقيقته الاجتهاد في حصول ما يحب الله من الإيمان والعمل الصالح ، وفي دفع ما يبغضه الله من الكفر والفسوق)[٥]

ومن تتبُّع ما ورد من نصوص في (الجهاد) يتضح لنا بجلاء أن (الجهاد) يشمل :

- **جهاد النفس ، ومنه جهاد الشيطان .**
- **وجهاد التبليغ والدعوة إلى الله عزَّ وجلّ .**
- **وجهاد العدو بالسلاح .**

أولاً : جهاد النفس

وهذا النوع من الجهاد هو أصل كلّ جهاد .. لأنه يقضي أن يستفرغ المرء جهده في تعلم الحق .. كما أنزله الله عزَّ وجلّ .. ثم يبذل وسعه من أجل صبغ حياته بما علمه .

والنصوص الدالة على هذا المعنى كثيرة نكتفي منها بذكر آية وحديث :

- يقول الله تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [العنكبوت: ٦٩][٦] .

- وعن أبي ذر الغفاري ﷺ قال : سألت رسول الله ﷺ : أي الجهاد أفضل ؟ قال : « **أَنْ تُجَاهِدَ نَفْسَكَ وَهَوَاكَ فِي ذَاتِ اللهِ عزَّ وجلّ** »[٧]

وهنا نشير إلى قضية هامة في باب جهاد النفس يغفل عنها كثير من المسلمين اليوم .. وهذه القضية تتمثل في عجز كثير من التائبين عن توسيع معنى التوبة ليشمل الآثام القلبية فضلاً عن الآثام الظاهرة ، وليشمل الفرائض القلبية بالإضافة إلى الفرائض العملية الظاهرة .

ومن يتأمل الجانب (الأخلاقي) في الساحة الإسلاميّة يخش أن ينطبق على كثير من العاملين حديث (المفلس)[٨] الذي بيّن فيه رسول الله ﷺ أن الانتصار الأكبر إنما هو الانتصار على النفس في الجانب الأخلاقي الذي يحجز المرء عن العدوان على الآخرين ..

ومن يوسع النظر في النفس البشرية من منظور إسلامي يدرك أن (جهاد النفس) يرافق الإنسان في كافة مراحل عمره التكليفي .. فهو في امتحان دائم بسبب تغير الأوضاع التي يمر بها ، وتباينها في كل مرحلة عن

---

(5) ابن تيمية : العبودية ص ٥١-٥٢ .

(6) ومن لطائف (رياض الصالحين) للنووي رحمه الله أنه ذكر هذه الآية في (باب المجاهدة) .

(7) رواه أبو نعيم في (الحلية) وهو في سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني برقم ١٤٩٦ .

(8) روى مسلم عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : « **أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ** ؟ » قَالُوا : الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لاَ دِرْهَمَ لَهُ وَلاَ مَتَاعَ ، فَقَالَ : « **إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي مَنْ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلاَةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ ، وَيَأْتِي وَقَدْ شَتَمَ هَذَا وَقَذَفَ هَذَا وَأَكَلَ مَالَ هَذَا وَسَفَكَ دَمَ هَذَا وَضَرَبَ هَذَا ، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ** » .

المراحل التي تسبقها .. بل إنّ الإنسان ممتحن حتى وهو يؤدي الشعائر .. ويعلِّم العلم .. ويقاتل أعداء الله .. وما أروع حديث رسول الله ﷺ الذي يرشدنا فيه إلى وجوب الانتصار على النفس في كل موطن .. روى مسلم والنسائي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال سمعت رسول الله ﷺ يقول :

« **إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ ، فَعَرَفَهَا ، قَالَ : فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا : قَالَ : قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتُشْهِدْتُ ، قَالَ :كَذَبْتَ ، وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لأَنْ يُقَالَ : فُلانٌ جَرِيءٌ ، فَقَدْ قِيلَ ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّار . وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ وَعَلَّمَهُ ، وَقَرَأَ الْقُرْآنَ ، فَأُتِيَ بِهِ ، فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ ، فَعَرَفَهَا ، قَالَ : فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا ؟ ، قَالَ : تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ وَعَلَّمْتُه ، وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ ، قَالَ : كَذَبْتَ ، وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ : عَالِمٌ ، وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَال : هُوَ قَارِئٌ ، فَقَدْ قِيلَ ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّار . وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللَّهُ عَلَيْهِ ، وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ ، فَأُتِيَ بِهِ ، فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ ، فَعَرَفَهَا ، قَال : فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا ؟ قَال : مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلاَّ أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ ، قَال : كَذَبْتَ ، وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَال : هُوَ جَوَادٌ ، فَقَدْ قِيلَ ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ** »[9] .

ثانياً : جهاد التبليغ والدعوة

وهذا الضرب من الجهاد (تبليغ رسالة الله إلى الناس ، ودعوتهم إلى عبادته وحده) أصل دعوة الرسل عليهم الصلاة والسلام ، وهو من أعظم القربات إلى الله عزَّ وجلّ .

- يقول الله تعالى : ﴿ **قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ...** ﴾ [يوسف: ١٠٨]
- ويقول الله عزَّ وجلَّ : ﴿ **وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ** ﴾ [فصلت: ٣٣]

والآيات والأحاديث الدالة على هذا النوع من الجهاد كثيرة نذكر طرفاً منها ، وليس قصدنا التفصيل :

- ففي سورة الفرقان –وهي مكية– نقرأ قول الله تعالى : ﴿ **... وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا** ﴾[10] أي القرآن .
- وفي سورة العنكبوت –وهي مكية أيضاً– يحدثنا ربنا عزَّ وجلَّ عن (سنة الصراع بين الحق والباطل) المتضمنة لـ (سنة الابتلاء) وفي ختام الحديث يقول الله تعالى : ﴿ **وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ** ﴾ [العنكبوت: ٦] .

---

(9) وانظر رواية الترمذي وابن حبان وابن خزيمة لحديث أبي هريرة ، فإنها مفيدة ، وتجدها في (الترغيب والترهيب) باب (الترهيب من الرياء وما يقوله من خاف شيئاً منه) .

(10) [الفرقان : ٥٢] .

وقد فسر ابن كثير (جاهد) بـ (عمل) ثم نقل عن الحسن البصري رحمه الله قوله : (**إنّ الرجل ليجاهد وما ضرب يوماً من الدهر بسيف**) .

▪ وفي الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال : « **جَاهِدُوا الْمُشْرِكِينَ بِأَنْفُسِكُمْ وأَمْوَالِكُمْ وَأَلْسِنَتِكُمْ** »[11] .

وجهاد التبليغ .. يفرض على (المبلِّغين) أن يستمروا في تحصيل المعرفة بالإسلام وبالواقع الذي يريدون تغييره .. ولا يصح أن يقفوا عن تنمية معارفهم الإسلاميّة -بكل ما تعني عبارة : المعارف الإسلاميّة- أو أن يدرسوا الواقع مرة واحدة ، ثم لا يعيدون النظر في متغيراته مرة بعد أخرى من خلال الزمن ..

وهذه البدهية سهلة الترداد على اللسان ، جميلة الوقع على الآذان ، ولكنها غير متحققة -كما يجب- في الواقع العملي اليوم!! ولذلك يقع الخلل في السير والتصرفات!!

وجهاد التبليغ .. يفرض على الدعاة إلى الله أن يعبروا عن الإسلام تعبيراً يناسب العصر : زماناً ومكانا . وهذا يتطلب (الاجتهاد) في أسلوب العمل ، وفي (اختيار) القضايا الهامة التي تؤثر في الناس .. فتبلغهم الدعوة وتقيم عليهم الحجة .. وهذا لا يتم إلاّ إذا كان الدعاة يعيشون مع الناس ، ويحبونهم ويغارون على مصالحهم الدنيوية والأخروية .

والعمل الإسلاميّ اليوم يشكو ، في معظم ساحاته ، من التخلف في الأسلوب ، ومن الاشتغال بقضايا لا تلامس (مراكز التأثير والتوجيه) في حياة الناس ، كما يشكو من انقطاع الصلة بالناس .. ليس هذا فحسب ، بل إنّ كثيراً من العاملين في الحقل الإسلاميّ لينمون لدى من حولهم كراهية الآخرين ، والتطاول على المسرفين ، بدلاً من زرع حب الخير للناس -كل الناس- والعطف على المقصرين .. وبذل الجهد من أجل انتشالهم من الذي هم فيه!! . وهذا يعني أن كثيرين من الغيورين يشكلون حاجزاً بين الإسلام وبين الناس من حيث لا يريدون ولا يشعرون .

وجهاد التبليغ .. يفرض على المبلِّغين أن يدركوا أنهم يزرعون (نخلاً) لا (فجلاً) وأن النخل لا يؤتي أُكله إلاّ بعد حين .. كما عليهم أن يفقهوا تجارب البشر المعبر عنها بالمثل السائر : (من تعجل الشيء قبل أوانه عوقب بحرمانه) . ولا ريب أن الدليل على إدراك هذه الحقيقة هو أن يحل (التخطيط) محل (الارتجال) الضارب أطنابه في الساحة الإسلاميّة اليوم ..!! .

هذه بعض المعاني التي يجب أن تتوفر في الداعين إلى الله تعالى .. وهي من (البصيرة) الواردة في قوله تعالى : ﴿ **قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ** ﴾ [يوسف: ١٠٨]

(11) رواه أحمد وأبو داود وغيرهما بسند صحيح عن أنس ، وذكره الألباني في (صحيح الجامع الصغير وزيادته - برقم ٣٠٨٥) .

ثالثاً : القتال

وهذا النوع من الجهاد له مكانته البارزة في الإسلام ، وهو مشروع :

- لدفع العدو المغير .
- ولإزالة القوى التي تعمل على محاصرة الإسلام وإقصائه ، وتحاول منع انتشاره في الأرض.

وفي فضل هذا الجهاد وردت آيات كثيرة وأحاديث وفيرة :

- فمن الآيات قول الله تعالى: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ ...** ﴾ [سورة التوبة: ١١١] .

- ومن الأحاديث ما رواه مسلم عن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « **تَضَمَّنَ اللَّهُ لِمَنْ خَرَجَ فِي سَبِيلِهِ : لاَ يُخْرِجُهُ إِلاَّ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَإِيمَانًا بِي وَتَصْدِيقًا بِرُسُلِي فَهُوَ عَلَيَّ ضَامِنٌ أَنْ أُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ ، أَوْ أَرْجِعَهُ إِلَى مَسْكَنِهِ الَّذِي خَرَجَ مِنْهُ ، نَائِلاً مَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ ، مَا مِنْ كَلْمٍ يُكْلَمُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِلاَّ جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَهَيْئَتِهِ حِينَ كُلِمَ ، لَوْنُهُ لَوْنُ دَمٍ وَرِيحُهُ مِسْكٌ ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْلاَ أَنْ يَشُقَّ عَلَى الْمُسْلِمِينَ مَا قَعَدْتُ خِلاَفَ سَرِيَّةٍ تَغْزُو فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَبَدًا ، وَلَكِنْ لاَ أَجِدُ سَعَةً فَأَحْمِلَهُمْ وَلاَ يَجِدُونَ سَعَةً وَيَشُقُّ عَلَيْهِمْ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنِّي ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوَدِدْتُ أَنِّي أَغْزُو فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَأُقْتَل ، ثُمَّ أَغْزُو فَأُقْتَلُ ، ثُمَّ أَغْزُو فَأُقْتَل** » .

وهذا النوع من الجهاد حين يجب لا يصح أن يتخلف عنه من يتعين عليه .. والتخلف عنه من الكبائر.

ومعرفة متى يجب (حمل السلاح في سبيل الله عزَّ وجلّ) بحاجة إلى .. علم شامل متوازن بالإسلام .. وإلى معرفة مستوعبة لحركة القوى المعادية المحلية والدولية .. وإلى إطلاع شامل على أوضاع القوى الإسلاميّة .. ثم إلى قدرة واعية على الربط بين ذلك كله والخروج برأي شرعي .. وهذا لا يجيده إلاّ قلة هم الذين نعبر عنهم اليوم بـ (القيادة) .

وهذا يعني أن المسلم مسؤول عن الذي يتخذه قائداً له .. فإذا أراد أن يعمل على بصيرة من أجل استئناف الحياة الإسلاميّة وإقامة الحكم الإسلاميّ في الأرض ، فعليه أن يختار من تتوفر فيه أهلية القيادة في ظروف عصره .. حتى لا يضل مسعاه وهو يظن أنه يحسن صنعا .

خلاصة وبيان

١- هذه أنواع الجهاد الواردة في الكتاب والسنة .. منها نوعان يستمران في جميع مراحل العمر ، وفي جميع حالات المرء .. الأول : جهاد النفس والشيطان ، والثاني : جهاد التبليغ والدعوة . أما النوع الثالث (القتال) فإنه يمارس في حالات وظروف معينة ، بمعنى أن فريضته مستمرة ، ولا يملك أحد إلغاءها، أما ممارسته

فتكون في أيام محدودة . فهو –على سبيل المثال– كالزكاة مفروضة على المسلم إذا تحققت شروط ، فإذا توفرت و لم يخرج المسلم زكاة ماله كان آثماً .. وكذلك الجهاد بمعنى (القتال) .

٢– والكلام على أنواع الجهاد لا يفهم منه أن المسلم لا يحمل السلاح في مواجهة أعداء الله إلاّ إذا فرغ من جهاد النفس وجهاد التبليغ .. فقد يقوم في الأمة ما يدعو إلى حمل السلاح ، وعلى من وجب عليه ذلك أن ينهض إليه بعزم من حديد .. على الرغم من تقصيره في جهاد نفسه ..

٣– وجهاد التبليغ .. إذا قام الدعاة بمتطلباته الشرعية .. سيعرضهم –في زمن غياب الدولة المسلمة– إلى صنوف الأذى .. كالتكذيب ، والتضييق ، والإخراج ، والقتل .. وهنا نسأل : هل يشك مسلم واعٍ بثواب الله العظيم لمن نهض بهذا الواجب وصبر صبراً جميلاً على الأذى في ذات الله عزَّ وجلّ ؟

وهنا نؤكد أن من التبليغ (تربية الذين استجابوا للدعوة) وأن التربية تعني : تنمية طاقاتهم العلمية ، والعملية ، والأخلاقية ، باستمرار ليكونوا أكثر قدرة على القيام بواجبهم . وهذا من أبرز التحديات التي تواجه الحركة الإسلاميّة بسبب قلة القياديين الذين يرتقون بأنفسهم .. باستمرار .. ويأخذون بأيدي من معهم إلى المواقع المتقدمة يوماً بعد يوم .

ولذلك كان الإلحاح على وجوب الاستمرار في (جهاد النفس) ، فالترقي في مقامات الكمال ضرورة ، وخاصة في زمن الهبوط والإخلاد إلى الأرض .. لأن الناس بحاجة إلى قوة كبيرة نامية تنهض بهم وتحلق بصحبتهم في سماء الحق .

العالمية والقطرية

إنّ للتجزئة التي يعيشها العالم الإسلاميّ اليوم آثاراً مدمرة في حاضر المسلمين ومستقبلهم ، وقد ساهم في ترسيخ هذه التجزئة دعوتان مفرقتان هما : الوطنية (القطرية) والقومية .

ونسارع إلى القول بأن الإسلام لا ينكر على المسلم حبه لأهله وقبيلته ، بل يأمره بحبهم ويحضه على السعي في مصالحهم ، ولا يمنع الإسلام العظيم المسلم أن يحنّ إلى الأرض التي ترعرع في ربوعها ، إذا قُدِّر له أن يعيش بعيداً عنها ، والأدلة على ذلك كثيرة ، ونكتفي هنا بذكر ما رواه الإمام أحمد والترمذي وغيرهما بسند صحيح عن عبد الله بن عدي بن الحمراء أن رسول الله ﷺ قال وهو يخاطب مكة :

« **وَاللَّهِ إِنَّكِ لَخَيْرُ أَرْضِ اللَّهِ ، وَأَحَبُّ أَرْضٍ إِلَيَّ ، وَاللَّهِ لَوْلاَ أَنِّي أُخْرِجْتُ مِنْكِ مَا خَرَجْت** » .

فالذي يرفضه الإسلام هو أن تحمل (القطرية والقومية) مضامين فكرية وخلقية فاسدة مفسدة ، وهذا –وا أسفاه– واقع الوطنية والقومية في عالم اليوم ، وبما أن الإسلام يرفض التجزئة ، ويناوئ إفرازاتها المنتنة

العداء ، فإن على حملة رسالة الإسلام أن يولوا هذه المشكلة أهمية كبرى تناسب حجم مآسيها في النفس والواقع ، وسأتناول بشيء من البيان عدداً من المعاني التي تبين فضل العالمية في العمل الإسلاميّ وتحذر من خطر التقوقع في القطرية .

١- الإسلام دعوة عالمية

لسنا في حاجة إلى سرد الأدلة على عالمية الدعوة الإسلاميّة ، فالنصوص كثيرة مشهورة ، ونكتفي هنا بذكر طائفة منها :

- يقول الله تعالى : ﴿ **قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا** ...﴾ [الأعراف: ١٥٨]
- ويقول عزَّ وجلّ : ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا** ...﴾ [سبأ: ٢٨]

ثمّ إنّ عالمية الرسالة لم تتقرر بعد قيام دولة الإسلام في المدينة ، وإنما تقررت منذ الأيام الأولى من بعثة النبي ﷺ ، فنحن نقرأ في سورة المدثر قول الله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۞ قُمْ فَأَنْذِرْ** ﴾ [١-٢] ثم نقرأ في السورة ذاتها : ﴿ **نَذِيرًا لِلْبَشَرِ** ﴾ [٣٦] ، ونقرأ في سورة التكوير قول الله عزَّ وجلّ : ﴿ **إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ** ﴾ [٢٧] .

٢- عالمية الحركة فرع من عالمية الرسالة

وإن ممارسة النبي ﷺ للدعوة تدل بوضوح على أن تحركه كان يحمل طابع العالمية من بداية الأمر .. فقد ذكرت كتب السيرة أن من أوائل المؤمنين برسالة الإسلام أبا بكر القرشي ، وبلالاً الحبشي ، وصهيباً الرومي .. وأن هذه العالمية أخذت بُعداً آخر في مرحلة قيام الدولة في المدينة ، فقد راسل رسول الله ﷺ هرقل الروم وكسرى فارس ومقوقس مصر وغيرهم ، ودعاهم إلى الإسلام .

ثم إنّ الصحب الكرام رضوان الله عليهم أجمعين ساروا على النهج وانتشروا في الأرض يفتحون القلوب والبلاد .. ودخلت شعوب في دين الله بفضل جهاد أولئك الذين حملوا الرسالة إلى من وصلوا إليهم من الشعوب والأمم ، وتابعت بعدهم أجيال الطريق ووصلوا برسالة الإسلام إلى بلاد لم يصل إليها سلطان المسلمين السياسي .

إنّ واقع المسلمين اليوم مؤلم مزعج .. فأمتنا كانت واحدة ثم مزقها إرباً إرباً الجهل والانحراف والهجمات العسكرية والفكرية والثقافية الغربية الحاقدة .. ويجب علينا أن نغير هذا الواقع الممزق الآسن ، وأن نثور على قيوده التي تفرق وتضعف المناعة الإسلاميّة في القلوب وفي واقع الممارسة . وقد تبين لنا مما ذكرناه من نصوص ، وما أشرنا إليه من ممارسة نبوية كريمة ، واتباع من الصحب والتابعين لهم بإحسان ما يأتي :

- إنّ عالمية الحركة الإسلاميّة فرع من عالمية الدعوة .. لأن الحركة وسيلة لتحقيق أهداف الدعوة .. فإذا كانت الرسالة عالمية لزم أن تكون وسائلها عالمية .

■ وإنّ على أرباب العمل الحركي أن يقيموا عملهم على أساس التوسع به إلى آفاق عالمية .. ونؤكد أن الانتشار الجغرافي ليس هو المقياس الوحيد على كون الحركة عالمية ، فقد يتوفر الانتشار الاسمي ومع ذلك لا تكون الحركة عالمية بالمعنى الصحيح .

٣- عالمية الحركة ضرورة بشرية

إنّ حاجة البشر ، سواء كانوا -مسلمين أم غير مسلمين- إلى اللقاء والتعاون والتساند من أجل تحقيق أهداف مشتركة ، حقيقة لا ينكرها إلاّ معاند ، وهذه الحاجة محكومة بقاعدة (العمل على جلب المصالح ودفع المفاسد) من وجهة نظر المجتمعين على أمر ما .

ولا نذهب بعيداً في ضرب الأمثلة فالعصر الذي نعيش أيامه يقدم أمثلة واضحة على حاجة الجماعات البشرية إلى التلاقي والتعاون .. وأكتفي بالإشارة إلى ثلاثة أمثلة :

■ في حياتنا المعاصرة فكران يحاولان فرض وجودهما (عالمياً) هما الفكر الاشتراكي[١٢] والفكر الرأسمالي ، وكل واحد منهما يشعر بحاجته إلى من يكون معه في صراعه مع الفكر الآخر ، ولذلك يسعى كل منهما إلى تكوين التحالفات ، سواء تحالفات الارتباط المصيري ، وهذا النوع من التحالف تمثله الدول التي تنتمي إلى حلف وارسو وحلف شمال الأطلسي ، أو تحالفات الولاء الفكري والعسكري والاقتصادي ، وهذا النوع تعمل به الدول الصغيرة والفقيرة .. فإنها تتحرك في فلك أحد المعسكرين .

■ والمثال الثاني هو (الرابطة الأوروبية المشتركة) التي قامت بدوافع تحقيق المصالح المشتركة .. فقد أدركت حكومات أوروبا الغربية أن كل دولة بمفردها لا تستطيع في ظروف العصر أن تواجه تحديات الحاضر والمستقبل .. ولعل أبرز التحديات التي تواجه أوروبا الغربية اليوم وفي الغد الشعور بفقدان الاستقلال شيئاً فشيئاً أمام الحضور الأمريكي الساحق ، وخاصة في المجال العسكري والميدان الاقتصادي .

■ والمثال الثالث يحدثنا عن سعي أحزاب (الاشتراكية الدولية) ، وكذلك الأحزاب (المسيحية الديمقراطية) ، إلى إيجاد الروابط التنظيمية التي تساعدها على التساند والتعاون من أجل نصرة قضاياهم المشتركة .. ويتجاوزون في سبيل ذلك حواجز اللغة والقومية ، ولا يمنعهم توزعهم في القارات من اللقاء وتبادل الرأي والسير خطوات في طريق التعاون الأفضل .

مما ذكرنا يتضح بجلاء ما يأتي :

■ إنّ فكرة (العالمية) أصيلة في الإنسان ، وهي ضرورة من ضرورات الحياة .

■ وإنّ الفكر القومي بالمعنى الذي قام في أوروبا ، ثم عن طريقها انتشر في الأرض ، (ظاهرة مرضية) ذاقت أوروبا قبل غيرها ويلاته ، وها هي اليوم تراجع حساباتها ، وتسلك سبيلاً يخفف من غلواء الفكر القومي ، ويثبت معاني التآلف والتعاون والوحدة بين الشعوب .

---

(12) كتب هذا البحث قبل انهيار المعسكر الاشتراكي وتفكك الاتحاد السوفييتي ، والمثال المضروب لا يزال صالحاً في الدلالة على ضرورة العالمية .

٤- وجوب التغلب على العقبات

إنّ القطرية والقومية التي تسهم في إضعاف المسلمين يتولى أمر تثبيتها في الفكر وفي الواقع أنظمة حكم وأحزاب تدين بالولاء للفكر الدخيل .. وقد بلغ من تأثير مراكز قوى الفكر الغازي أن الأثر المفسد للقطرية والقومية قد وصل إلى مشاعر عامة أبناء المسلمين و لم يعد محصوراً في فئة المتغربين .

ونضيف هنا حقيقة يجب أن تدرك وهي : إنّ التجزئة السياسية في العالم الإسلاميّ تفرض قيوداً على الاتصال بين الأقطار الإسلاميّة .. لأن المستفيدين من التجزئة يشعرون بخطر الاتصالات عليهم .

هذه العوامل وغيرها يجب أن تدفعنا إلى العمل المستمر من أجل التغلب على العقبات وفك القيود ، ولا يصح أن نخاف العقبات ، أو أن نقبل بالتحرك ضمن الأطر التي يضعها مستغلو تفكك الأمة وتفرقها .

وتخطي العقبات إنما يكون :

١- بالتوعية بواجب وضرورة العالمية .

٢- وإقامة جسور التعارف بين العاملين المخلصين .

٣- وباللقاء الصميمي من خلال عمل جماعي واحد .

٥- العلاقة بين القطرية والعالمية

إنّ الحركة الإسلاميّة لا تكون عالمية في ظروف بلادنا وعصرنا إلاّ إذا قامت على :

١- أهداف مشتركة .

٢- ومبادئ تحكم سيرها .

٣- ونظام يحدد العلاقات بين أجزاء العمل الممتد .

٤- وأجهزة تملك القدرة على التفكير المشترك والتخطيط المشترك ، وتملك أيضاً الحق في القرار المشترك الملزم .

وعليه ، فالقاعدة التي تحكم العلاقة بين الحركة داخل القطر وبين الحركة المشتركة (العالمية) هي التخصص والتكامل الذي يقوم على (تحديد دائرتي التحرك) حيث يتمتع القطر بالقدرة على العمل والنمو السليم . وحين تنمو الحركة في القطر .. علماً ووعياً وتنظيماً وقدرة .. فإن ذلك ينعكس خيراً وقوة على مجموع العمل المشترك .

ثم إنّ القطر في علاقته بالحركة العالمية ليس جهاز استقبال فحسب .. بل هو يشارك في صنع القرار ، ويقدم طاقات تنمي العمل المشترك وتسدد خطاه .

وهنا نحذر من قيام عمل قطري له صفة الاتصال العالمي .. وهو في الحقيقة عالمي العنوان لا الممارسة .. فمثل هذا العمل يضعف الثقة ، ولا يسمح بحرية تبادل الرأي ، كما أنه يفقد الحركة العالمية القدرة على تصحيح مسار العمل داخل القطر إذا وقع ما يدعو إلى ذلك .

٦- من آثار عالمية الحركة

إنّ العمل الذي يقوم على العالمية في الفكر وفي الممارسة الجادة تكون له آثار طيبة كريمة ، من هذه الآثار نذكر هنا :

- تكامل المعلومات ، وتبادل الخبرة ، والاستفادة من الطاقات المتوفرة في مواقع متعددة .
- الحركة العالمية صمام أمن للحركة داخل القطر ، حيث تسهم في تجنيب القطر الاجتهادات القاصرة ، وتسدد أعماله عند الحاجة ، وتحرر العمل القطري أيضاً من قيود النظرة الجزئية ، وتزوده بالنظرة الشاملة المتوازنة إلى جميع القضايا .
- عالمية الحركة توفر لكل قطر عمقاً فكرياً ، وأمنياً ، وثقافياً ، ومادياً ، في الأقطار الأخرى .. وهذا من عوامل النجاح والثبات داخل القطر .

وبعد :

فالعالمية ليست شعاراً يرفع .. أو كلمات يدغدغ بها الخطباء والكتاب عواطف السامعين والقراء ، وينالون بذلك إعجابهم ، في الوقت الذي لا تأخذ المعاني طريقها إلى القلوب والسلوك والممارسة .

والعالمية ليست مجرد معلومات عن أوضاع العالم والعصر .. ووضع المسلمين في هذا العصر ومكانتهم في العالم اليوم .. فالمعرفة مطلوبة وضرورية .. وهي توفر شرطاً يهب المرء وضوحاً في الرؤية .. ولكنها ليست كل شيء .. فالممارسة هي التي تفجر الطاقة التي تهتدي بنور المعرفة .

والعالمية التي نراها ضرورة من ضرورات العمل الإسلاميّ عبارة عن ممارسة مستمرة نامية صادرة عن إيمان المسلم بالتكليف الرباني في هذا المجال ، حتى وإن كان العمل في بداية أمره محدوداً بفرد أو مجموعة أفراد .

وهذه الممارسة لا يصح أن تهمش .. بل يجب أن تأخذ بُعداً عملياً يتجاوز اللقاء العاطفي ، ويتجاوز أيضاً مجرد تبادل الرأي ، إلى اللقاء المستمرّ الذي يعبر عن وجوده من خلال المؤسسات المشتركة ، والرأي الواحد ، والموقف الواحد .

التقويم في العمل الإسلاميّ

إنّ الحديث عن التقويم في نطاق الحركة الإسلاميّة يطرح سؤالين .. ومن خلال الإجابة عليهما تتضح أهمية التقويم وضرورة ممارسته بصورة إيجابية بناءة :

السؤال الأول : **ما المراد بالتقويم ؟**

جاء في المعجم الوسيط (ص ٧٧٣) : قوَّم المعوج : عدَّله وأزال عوجه ، وقوَّم السلعة : سَّعرها وثـمَّنها .

من هذا الأصل اللغوي أرى أن **التقويم في ساحة العمل الإنساني هو : دراسة ما أنجز من أعمال ، وما اتخذ من مواقف ، وفق مخطط مسبق ، وقواعد مقررة ، في ضوء ما طرأ من تغييرات ، بقصد التعرف إلى مواطن القوة ومكامن الضعف ، من أجل تصويب مسيرة العمل .. وذلك بالسعي إلى استدراك النقص ، وتجاوز التقصير ، وإصلاح الخطأ ، والاستفادة من الإمكانات المتوفرة في ظروف متغيرة باستمرار .**

والسؤال الثاني : **ما العمل الإسلاميّ ؟**

يلوح لي أن مصطلح (**العمل الإسلاميّ**) يمكن تحديده بأنه (**مجموع الجهود المبذولة بأسلوب إسلاميّ بقصد تحقيق أهداف الإسلام في حياة البشر**) .

هذا التعريف يضعنا أمام جملة من القضايا التي يجب أن تأخذ بُعدها الشرعي في قلوب المسلمين العاملين حتى يتسنى لهم أن يقطفوا ثمارها يانعة :

١- إنّ الإسلام العظيم يقرر حقيقة أولية لا يجوز أن تغيب عن إدراك المسلمين ، والعاملين منهم بخاصة ، وهي : إنّ هذا الدين لا يتحقق في حياة البشر إلاّ بجهد البشر أنفسهم ، فإذا هم سلكوا طريق العمل كما يجب .. كان لهم من الله العون والتأييد .. ونصوص القرآن الكريم والسنة المطهرة تتضافر في الأمر والحضّ على التبليغ والجهاد والإنفاق والصبر .

ولا يخفى أن الجهود البشرية معرضة أثناء التخطيط ، وفي مرحلة التنفيذ ، إلى التأثر بنسبية علم البشر ، واجتهادات البشر التي تحتمل الصواب والخطأ ، وأهواء البشر في لحظات الضعف البشري ، وما يحدث من تغيرات سواء كانت سلبية أم إيجابية .. وهذا يبرز أهمية التقويم .

٢- والجهود المبذولة في سبيل الله لا تؤتي ثمرتها المأمولة ، ولا يظهر أثرها المرجو ، إلاّ إذا بُذلت من خلال عمل جماعي ينظم الطاقات ، ويؤلف بينها ، ويوجهها إلى قلب الواجب .

إنّ اجتماع الجهود ليس من نافلة العمل إذا كان الواجب لا يتم إلاّ به .. ونصوص الشرع تأمر المؤمنين بجمع قلوبهم وجهودهم للنهوض بمتطلبات الواجبات الكبرى .. من ذلك قول الله عزَّ وجلّ : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ** ﴾ [الصف: ٤] وقول النبي ﷺ : « **الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا ، ثُمَّ شَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِه** » رواه الشيخان وغيرهما .

وتنظيم الجهود يجب أن يقوم على أساس متين من العلم بالإسلام كما أنزله الله عزَّ وجلَّ ، وعلى معرفة كافية بالعصر .. فصورة التنظيم ، والعلاقات الداخلية بين الأفراد والأجهزة ، ونحو ذلك ، لا يصح أن تقوم إلاّ على أساس شرعي يعصم من زرع المعاني غير المشروعة في قلوب المجتمعين على عمل جماعي .

٣- وحين يقوم عمل جماعي ، يجد نفسه أمام تحديد طريقة العمل التي تسلك به السبيل إلى تحقيق الأهداف في ظروف الزمان والمكان .. ولا يتنازع اثنان في أن طريقة العمل للإسلام تختلف عن طرق العمل لغيره من الدعوات ..

فمعرفة منهج العمل الإسلاميّ مهمة جداً ، لئلا يسيء العاملون وهم يظنون أنهم يحسنون صنعاً .. لذلك نُصر باستمرار على إبراز حقيقة كبرى من حقائق الإسلام وهي : إنّ الله تعالى قد أرسل رسوله ﷺ بالرسالة .. وبمنهج العمل لهذه الرسالة .. وعلى العاملين أن يبذلوا جهوداً واعية بصيرة لتحقيق الاتباع في ظروف عصرهم .

٤- والعمل الجماعي الجاد هو الذي يسعى إلى تحديد أهداف الإسلام في زمانه ، ويعمل على تهيئة أسباب تحقيقها ، ويقوم بنشرها بين الناس ، ويسهر على تربية أعضائه على المعاني الشرعية الضرورية ، من أجل النهوض بتكاليف الأهداف الجليلة .

وتحديد الأهداف الإسلاميّة عمل ليس سهلاً في حد ذاته ، ولا يستطيع القيام بهذه المهمة الخطيرة إلاّ من أوتي علماً بالإسلام كافياً ، ودراية بالواقع عميقة ، مع قدرة على الربط بين النصّ والواقع .

أمثلة على التقويم :

إنّ الذي ذكرناه في السطور السابقة يظهر فيه الدور البشري ، وهذا يبين الحاجة إلى (تقويم) ، ونأتي الآن إلى ضرب أمثلة على مسائل يجب أن يتناولها التقويم ، وهذه الأمثلة لا تفيد الحصر ، فكل شيء يصح أن يُقَوَّم ، يجب تقويمه .. وخير القرون هو عهد النبوة .. ذلك العهد الذي تكفل الله تعالى بتقويم مسيرته ومنجزاته :

١- تقويم الاختيارات في العمل الدعوي :

يقول الله تعالى موجهاً الرسول الكريم ﷺ إلى اختيار الأولى حين أعرض عن ابن مكتوم طمعاً في إسلام أحد كبار رجال الكفر : ﴿ **عَبَسَ وَتَوَلَّى ۞ أَنْ جَاءَهُ الأَعْمَى ۞ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى ۞ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى ۞ أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى ۞ فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى ۞ وَمَا عَلَيْكَ أَلا يَزَّكَّى ۞ وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى ۞ وَهُوَ يَخْشَى ۞ فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى** ﴾ [عبس: ١-١٠] .

٢- تقويم الإجراءات المتخذة في وضع ما وظروف معينة :

يقول الله تعالى في تقويم ما أمضاه الرسول ﷺ من أخذ الفدية من أسرى بدر : ﴿ **مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۞ لَوْلا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۞ فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلالاً طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ** ﴾ [الأنفال: ٦٧-٦٩] .

٣- تقويم الخلل في التزام أوامر القيادة :

يقول الله تبارك وتعالى في شأن الذين خالفوا أمر النبي ﷺ يوم أحد ونزلوا من على الجبل : ﴿ **وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ [آل عمران: ١٥٢] .

وحين تساءل ناس عن السبب الحقيقي لما نزل ﴿ **قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا** ﴾ ؟ جاء الجواب من العليم الخبير معلماً لهم وللأجيال المؤمنة من بعدهم : ﴿ **قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ** ﴾ [آل عمران: ١٦٥] .

٤- تقويم التقاعس عن القيام بالواجب وقت الشدة وإقبال الدنيا :

يقول الله عزَّ وجلَّ مرشداً الذين تغيبوا عن غزوة تبوك بسبب التعلق ببعض متاع الحياة الدنيا : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ** ﴾ [التوبة: ٣٨] .

٥- تقويم الدوافع والأخلاق :

يقول الله تعالى في بيان أثر الأخلاق القلبية في النصر والهزيمة : ﴿ **لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ** ﴾ [التوبة: ٢٥] .

خلاصة وبيان

١- إنّ تقويم الأعمال المنجزة والمواقف المتخذة .. عمل ضروري ، وجميع الجماعات التي تمارسه تصل إلى نتائج إيجابية .. لأنهم يدركون أنهم يعيشون أوضاعاً بشرية ومادية لا تثبت على حال .. وأن عليهم أن يتفاعلوا معها رغبة في درء المفاسد وجلب المصالح .

٢- وإنّ تنظيم الجهود الإسلاميّة واجب من أجل تحقيق الأهداف الإسلاميّة المشتركة .. والتنظيم الذي ندعو إليه في ظروف عصرنا ،هو ذاك الذي يقوم على (مؤسسات) ، و(هيئات) تنبثق من قاعدة العمل بطريقة إسلامية .. وتملك قدرة حقيقية على ممارسة عملية التقويم .

وهنا أقف قليلاً لأقول :

إنّ معظم الجهود التي تبذل في الساحة الإسلاميّة على أنها عمل إسلامي جماعي لا تمارس عملية التقويم كما يجب ..

لمـــــاذا ؟!

▪ لأن عامة النشاطات الإسلاميّة ما تزال صدى لنشاط أفراد .. تحيا بحياتهم وتموت بموتهم .. سواء كان الموت حقيقيّاً أم قلبيا .. فجماعية العمل غير متوفرة كما ينبغي .

▪ ولأن كثيراً من التصرفات السلبية تسوغ من قبل قياديين بأساليب توحي بأنها صواب .. ويحتمي هؤلاء بالظروف .. وبحسن النية .. وفي النظر إلى الناقدين على أنهم مُجرحون متطاولون!! وتنشأ على هذه المعاني أجيال تمارس نفس الطريقة مع أجيال جديدة .. وهكذا ينتقل الداء من جيل إلى جيل .

▪ ولأن معظم العاملين في الحقل الإسلاميّ يتحدثون عن التنظيم والتخطيط والتقويم ونحو ذلك .. ولكنهم لا يعطون هذه المصطلحات الجميلة بُعدها الشرعي المناسب لظروف العصر .. ومن يدقق النظر في أساليب التربية المتبعة في العمل لا يخفى عليه الإصرار على تربية الأجيال الجديدة وفق أسلوب (الشيخ والمريد) ، وهي تربية تعطل في الناشئة القدرة على إبداء الرأي ، وترسخ فيهم وجوب تسويغ الأعمال غير المقبولة .. لأن الاعتراض على أي تصرف معناه جرح الثقة بالقيادة!!.

٣- إنّ العصر الذي نعيش فيه معقد وسريع التقلبات ، وليس في وسع الفرد ، مهما كان موهوباً ، أن يحيط علماً بكل شيء .. وما لم يتوفر العدد القيادي اللازم وبمواصفات إسلامية عالية المستوى .. فإن عملية التقويم ستعاني من أزمات حادة .. وتبعاً لذلك ستكرس الأخطاء ويستمر مسلسل التسويغات .

إنّ عملية التقويم يجب أن تمارس من قبل جهاز قيادي جماعي ؛ يستوعب المتغيرات بإدراك ووعي عميقين .. ويكون قادراً على تحديد واجب اليوم مع استشراف واجب المستقبل .. عندئذ يكون هذا الجهاز قادراً على رؤية الطريق الذي يحقق المصلحة الإسلاميّة .. ويعمل على تصحيح المسير .. وبذلك يتحقق المقصود من التقويم .

العوائق الداخلية

(**الحركة ولود والسكون عاقر**) حكمة تعبر عن كشف العقلاء لسنة ماضية أودعها الله تعالى في الحياة والأحياء .. وأرى أن الساحة الإسلاميّة .. الحركية .. في أمس الحاجة إلى إدراك مغزاها .. والعمل الجاد بمقتضاها .. إذا أراد العاملون سلوك السبيل المفضي إلى تحقيق أهداف الإسلام بإذن الله عزَّ وجلَّ .. وأرجو أن أوفق إلى توضيح عدد من المسائل التي تعيق الحركة الإسلاميّة المعاصرة .. آملاً أن لا يحصر كلامي في حدود الأمثلة المضروبة .

إذا أتينا إلى جسم مادي وهو في حالة سكون .. وأردنا أن نحركه في اتجاه ما .. فإننا نحتاج إلى (قوة) من أجل التغلب على العقبة الأولى الناشئة عن (ثقل الجسم) .. ونحتاج أيضاً إلى قوة أخرى تتغلب على العقبات الخارجية التي تنشأ عن الاحتكاك بالمحيط (الأرض والهواء ..) والتي تسمى (المقاومة) . وهذا يقع أيضاً في دنيا الإنسان ، سواء كان فرداً أم جماعة ، فإنه لكي يتحرك باتجاه ما يحتاج إلى قوة تتغلب على محصلة القوى الداخلية المقاومة للحركة .. وإلى قوة أخرى أكبر من المقاومة الخارجية .

ونقصد بـ (القوى الداخلية المقاومة للحركة) أموراً كثيرة مثل : (الجهل ، والهوى ، وحب الدنيا ونسيان الآخرة ..) .هذه المسائل وأشباهها ينبغي أن يتضح معناها في قلوبنا وعقولنا .. وإلاّ وقعنا في شرّ كبير ..

إنّ حاجتنا كبيرة إلى إعطاء هذه المعاني ونظرائها بُعدها الشرعي المناسب : تحديداً لمعانيها .. وممارسة في الواقع أيضا .. ولنأخذ مثلاً (الجهل) .. هل يعني عندنا نقيض (العلم) ؟ . وإذا كان يعني ذلك .. فمن أين يؤخذ العلم ؟ وكيف ندرس العلم ؟ .. وما الذي نقصده أصلاً بكلمة (العلم) في هذا الزمان؟ .. وهذه الأسئلة تفرض نفسها ، لأن أموراً كثيرة دخلت إلى الفكر والعقيدة وغيرهما باسم العلم .. ولذلك فنحن مضطرون إلى تحديد (العلم) الذي يهبنا بصيرة تجعلنا نعبد الله تعالى كما يريد عزَّ وجلّ .. وهذا هو (علم النبوة) المحرر من القيود المعوقة للحركة السليمة التي تحقق أهداف الإسلام كما ينبغي في الواقع .. وما سواه ليس علماً وإن تزيّا بثوبه .

وأخشى أن يبقى المراد من هذا المثل غير محدد .. لذلك أسارع إلى ذكر مثل يوضح المقصود .. فأقول : نحن المسلمين نؤمن أن قول الله عزَّ وجلّ : ﴿ ... **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا** ... ﴾ [المائدة: ٣] . يعني ببساطة أن كل ما يتعلق بالعقيدة ، والشعائر التعبدية ، والأخلاق ، وكل ما يحتاج إليه الناس في شؤون حياتهم .. قد تمّ بيانه نصاً .. أو من خلال بيان القواعد التي تضبط حركة الحياة بحيث يحقق الإنسان الملتزم بها غاية وجوده .

ومن يدقق النظر في تاريخ أمتنا يعلم أنه قد غزت عقول وحياة المسلمين وأخلاقهم .. نظرات بشرية إلى الكون والحياة والإنسان .. بل وإلى الخالق ﷻ .. وأن من هذه الإفرازات ما دخل إلى العقيدة والشعائر التعبدية .. ومنها ما تسرب إلى عالم الأخلاق وميادين الحياة .. وهذا كله شكل (معوقات داخلية) قعدت بالأمة عن سلوك النهج القويم .. وصرفتها عن الاستقامة الحقة . وخطورة هذه الإفرازات البشرية تكمن في أنها لبست ثوب (الدين) وسفَّهت ما يخالفها .. وفي أنها غزت مراكز العلم والقدوة في الأمة ، لذلك فإن العلم الحق هو الذي يميز صاحبه ما جاء به النبي ﷺ مما دخل إلى حياة الناس حاملاً شعار علم النبوة .. وما هو منه بشيء. وأضرب مثلاً بمسائل من العقيدة .. ولا أتوسع .. فأقول : لا شكّ في أن الإيمان بالله تعالى .. وبما وصف به نفسه من صفات الكمال .. أو وصفه به رسوله ﷺ .. على النحو الذي أوحى به الله عزَّ وجلَّ هو الذي يولد في النفس المعاني التي تحرر الإنسان من القيود المعوقة المانعة من تحقيق العبودية الحقة .. ولكن كثيراً من الناس .. بعد قرون الخير .. اختلفوا في الموقف من أسماء الله تعالى والصفات التي وردت في القرآن والسنة .. وتوزعتهم

مذاهب متباينة .. بسبب مما ذكرنا من قبل .. وهنا موطن من مواطن الابتلاء .. فالعلم الحقّ الذي يرضي الله تعالى في هذه المسائل ، وفي غيرها ، هو الموافق لما جاء به رسول الله ﷺ من عند الله تعالى .. وأن كل ما يخالفه إنما هو (قيد) يصرف عن النهج الأقوم والأحكم والأسلم . وقل مثل هذا الكلام في كل مسألة ابتعد فيها الناس عن فقه نصوص القرآن والسنة كما ينبغي أن تفقه .

ونتابع الحديث عن عوائقنا الداخلية فنتناول بشيء من البيان مثلاً آخر .. إنه مرض (إيثار العاجلة على الآخرة) ذلك أن الذي يراقب الحركة الإسلاميّة المعاصرة لا يخطئه أن يرى ظاهرة عجيبة وغريبة عن طبيعة الرسالة الإسلاميّة .. متفشية في صفوف الكثرة الكاثرة من المنضوين تحت عنوان (العمل الإسلاميّ) .. وهذه الظاهرة ترى بوضوح حين يراقب الدارس أوضاع رجال وشباب الحركة الإسلاميّة .. وكيف يتعاملون مع مصطلح (العمل الإسلاميّ) ، لقد أصبح العمل الإسلاميّ لدى هذه الكثرة محصوراً في إعلان الانتماء إلى تجمع أو جماعة .. سواء كان التنظيم علنياً أم سريّاً .. ثم ينصرفون انصرافاً شبه كامل إلى أعمال الدنيا والتمتع بلذاتها والركون إليها .. ويعبر جلّ هؤلاء عن عملهم الإسلاميّ بحضور جلسة ثقافية أسبوعية ، أو نصف شهرية ، أو شهرية ، وبدفع اشتراك مالي ضئيل لا يشكل نسبة تذكر من دخل معظمهم .. ولا يسهم هذا الاشتراك في حلّ حقيقي للأزمة المالية في العمل الذي ينتمون إليه .. ويعلنون استعدادهم لدفع الغالي والنفيس وفاء بما عاهدوا الله عليه!!

إنّ وجود هذا الصنف من الرجال في ساحة العمل الإسلاميّ الحركيّ يشكل عقبة داخل الصف .. لأنّ أثرهم النفسي يصل إلى الأجيال الجديدة التي تبدأ التزامها بحيوية واستعداد طيب للأخذ والعطاء .. ولكن سرعان ما يتسرب إليهم من سابقيهم داء (الوهن) .. وقد يكون الخطب غير خطير إذا اعترف هؤلاء بمرضهم .. أما إذا حاولوا تسويغ ما هم عليه ، فإن المشكلة تتعقد والمخاطر تزداد .. لأن أخطر الأمراض القلبية هي تلك التي يسلك المصابون بها سبيلاً يوحي إليهم وإلى من حولهم أن ما هم عليه (كياسة وفطنة) .. ويعتسفون في التدليل على حالهم من (النقل) .. وينسبون عملهم إلى مقررات (العقل)!!

مما سبق ذكره يتبين لنا أن الانتصار على العوائق الداخلية في دائرة الإنسان يحتاج إلى بذل الجهد الواعي البصير .. مع اليقظة الدائمة .. ومن خلال الزمن المناسب .. ذلك أن بذل الجهد في زمن قصير لا ينضج -على الأغلب- فكرة .. ولا يرسخ الأبعاد الحقيقية للدعوة في القلب .. ولربما أفرز إهمال تحديد المنهج التربوي المناسب والوسائل اللازمة .. رجالاً .. يحسنون الحديث عن الإسلام .. وعن الواجبات العظام .. فيخيل إلى السامع أنهم عمالقة .. بينما هم في الواقع أقزام!!. وكم رأينا رجالاً ظننا أنهم (كبار النفوس) حين قرأنا لهم .. فلما وقع عليهم البصر وخبرناهم رددنا المثل القديم : (تسمع بالمعيدي خير أن تراه)! وإنها لتجربة رائعة ينقلها إلينا ابن عطاء حين يقول : (ادفن وجودك في أرض الخمول .. فما نبت مما لم يدفن لا يتم نتاجه) .

ولا ريب في أن بذل الجهد القليل في زمن غير كاف .. ينفع في ترك بعض المنهيات ويساعد على فعل بعض الطاعات ، إلاّ أن الوقوف عن الاستمرار في بذل جهد التربية .. الذاتية أو الجماعية .. وعدم المراقبة اللازمة المستمرة .. يؤدي إلى نشوء تشويهات فكرية ونفسية وخلقية تعوق الحركة .. ويزداد الطين بلة إذا نظر أبناء تيار التجديد إلى ما حصلوه من خير وقارنوه بما عليه عموم المسلمين من حولهم .. لأن هذا ربما حجب عنهم رؤية أن ما وصلوا إليه من علم وفكر وتنظيم ما يزال دون مستوى الحاجة والواجب .. وهذا الحجاب ينال من عزيمتهم ومن جهدهم .. فلا يفكرون جدياً في إعادة النظر في أوضاعهم ورفع مستوى جهدهم وأدائهم .

إنّ فصائل الحركة الإسلاميّة المعاصرة مدعوة إلى النظر في برامجها التربوية والثقافية .. وفي وسائلها واختياراتها الحركية .. لكي تحاصر المعوقات الداخلية التي تقف حجر عثرة في طريق تأهيل أبناء الحركة للقيام بتجديد أمر الدين في المسلمين كما يريد الله تعالى .. علماً وعملاً وجهاداً .. والذين يقصرون في بذل الجهد المستمر العالم البصير من أجل البناء الداخلي .. لن يكونوا قادرين على قيادة خطى المسلمين .. والشعوب المستضعفة .. في معركتهم مع أعداء الله وأعداء الإنسان .. وهي معركة شاملة تدخل في كل شعبة من شعب الحياة .. وتفرض على حملة رسالة الإسلام واجبات جسيمة .. عليهم أن ينهضوا بها ..

ثم إنّ التخفف من القيود الداخلية شرط أساسيّ من أجل التغلب على مقاومة الوسط الخارجي .. سواء تمثل في جهل الناس ، أو شهواتهم .. أو تمثل في أنظمة حكم وأحزاب تدعو إلى الفكر الدخيل ، وتعمل على محاصرة وإزهاق الفكر الإسلاميّ الأصيل .. أم تمثل في قوى عالمية ، ظاهرة وخفية ، تصنع لأمتنا مشكلات تعوق نهضتها وتحول دون عودتها إلى أصالتها . وهذا لا يعني أن نترك العمل في مواجهة التحديات التي يواجهنا بها الوسط الخارجي .. لأن دخولنا معركة الحق والباطل يساعدنا على رؤية نواقصنا وعيوبنا .. وفي ساحة الميدان يتربى الإنسان .. والمهم أن يكون لدينا الاستعداد لاستمرار بنائنا الذاتي .. فهذا الذي يجعلنا نضيف قوة إلى قوة .. ويؤهلنا لحمل الرسالة عن جدارة .

وإنني لأحذر الدعاة والمربين من خطورة البعد عن مواجهة (العوائق الداخلية) مواجهة جادة عالمة بحجة أن هناك مشكلات أكبر يجب أن نهتم بها .. وأدعو جميع العاملين إلى رؤية خريطة الواجبات رؤية شاملة .. وترتيب العمل بحيث لا يُعطى واجبٌ حظاً أكبر من واجب آخر أهم منه .. وبحيث لا نهمش الواجبات الأساسية .. ولا يصح أبداً أن يغيب عنا أن الاهتمام بإزالة العوائق الداخلية جزء أساسي من اهتمامنا بتوفير شروط الانتصار على العوائق الخارجية التي تحاول منع تحركنا نحو أهدافنا .. كما أن العمل الجاد في مواجهة العقبات الخارجية جزء أساسي أيضاً يساعدنا على التحرر من قيودنا الداخلية .

من عوائق العمل الإسلاميّ الداخلية

إنّ العوائق التي تعترض سبيل الدعاة إلى استئناف الحياة الإسلاميّة في محيط الفرد والأسرة ، وفي دائرة الأمة والدولة ، ضربان : عوائق تنبع من داخل صف العاملين ، والأخرى تعترض طريقهم من خارج .

وسأعرض إلى عدد من عوائق العمل الدعوي الداخلية ، لأني أرى أن الكلام في مراحل العمل الإسلاميّ السابقة قد تركّز بصورة أساسية على العوائق الخارجية ، ولن أقف طويلاً عند كل عائق أذكره خشية من الإطناب الممل ، ولإيماني بأن مثل هذه المواضيع يحتاج إلى جلسات حوار حتى تتبلور الحلول الناجعة ، وحسبي أن أنبه إلى بعض العوائق القاتلة ، علها تنفع من يقف عليها ، فتدفعه إلى عمل إيجابي ، وهذه العوائق هي :

أولاً : التقصير في دراسة الإسلام ، وفي التعرف إليه ، كما أنزله الله عزَّ وجلَّ في القرآن والسنة

وهذا التقصير يرجع في جملته إلى طبيعة المرحلة التي ظهر فيها العمل الإسلاميّ ؛ فقد ظهر في مرحلة سيطرت فيها على الأمة (أمية القراءة والكتابة) و(أمية الفكر والثقافة) . والذين شعروا بواجب القيام بعمل يرد إلى الأمة شعورها بوجودها ، ويحضها على إعادة بناء شخصيتها المميزة .. كانوا جزءاً من أبناء أمتنا يمتازون عنهم بإدراك آثار الهجمة الغربية على ديار المسلمين ، و لم يكن في استطاعتهم الرجوع إلى القرآن والسنة مباشرة في جميع الشؤون ، بل كان عامتهم يعظمون ما ورثوه عن الأجيال السابقة ، ويرون في مناقشته (لوثة) قد تمس العقيدة بسوء! .

ويشاء الله عزَّ وجلَّ أن تستمر حركة التوعية والنشاطات الداعية إلى تصحيح المسار .. ولتحقيق ذلك كان لا بد من الاتجاه نحو الماضي الأول لهذه الأمة .. ولا يخفى أن الرجوع إلى معرفة ما كان عليه جيل الصحابة رضوان الله عليهم ليس عملاً سهلاً ؛ فقد دخل إلى المراجع كثير من قضايا الأجيال التي أتت بعد جيل الصحابة .. وهذه القضايا تركت ظلالها على فهم ما ورد في القرآن والسنة .. وكثير من الذين حاولوا الرجوع إلى منهج الرعيل الأول وقفوا عند المسائل التي عانت منها أجيال ما بعد عهد الصحابة .. وقد دفعهم إلى الوقوف عندها كون هذه المسائل ما تزال بقاياها منبثة في جوانب البلاد الإسلاميّة ، وهذا المسلك ترك أثراً كبيراً على (المنهج) ، وكان من نتائجه أن كثيراً من الطاقات صرفت في الاهتمام بقضايا أصبحت في عصرنا ثانوية إذا قارناها بأخرى حادثة تفتك بأمتنا وتنال من ولائها للإسلام ، فحملات تغريب الفكر وميادين الحياة المختلفة هي أشد فتكاً بأمتنا من كل بدعة قادمة من الماضي ، وعملية التغريب يسهر على تنفيذها أنظمة حكم ، وبعضها يحمل شعار الإسلام . ويؤسفنا أن نرى ناساً طيبين يدخلون معارك طاحنة مع بقايا البدع بينما يسكتون عن ممارسة الحكام الظالمين المفسدين في الأرض .

أين المشكلة ؟

إنها كامنة في أن هؤلاء الطيبين وقفوا عند مشكلات أجيال سالفة ، و لم يتمكنوا من أخـــذ (المنـــهج) بجدارة واقتدار . ولذلك لم يتمكنوا من رؤية مشكلات الحاضر على حقيقتها ، وابتعدوا عن التفاعـــل معهـــا بصورة إيجابية تنبئ عن أصالة في الفهم واستقامة في التطبيق!. وهذا الكلام ينسحب على الذين يقولون : (مـــا ترك السابق للاحق شيئاً) ؛ فهم يرون تقليد العلماء السابقين في كل ما قالوه ، ويرون الخروج عـــن آرائهـــم واجتهاداتهم ضرباً من الغرور العلمي أو اللوثة الفكرية!!.

ثانياً: العجز أو التقصير في قراءة الواقع المحلي والدولي قراءة تحليل تضع أيدينا على القوى المؤثرة وطريقة عملها ، وتعرفنا على إفرازات هذا الواقع التي تطالبنا بتحديد موقف منها

وهذا التقصير أو العجز يرجع في جملته إلى عدم إدراك معظم أبناء الحركة الإسلاميّة لحجم التغيير الذي حدث في أمتنا . وأضرب أمثلة ولا أدخل في تفاصيل ..

١- **التجزئة السياسية** التي قسمت بلاد المسلمين إلى أقطار ، وكل قطر له (ملك وعلم) ، وبين هذه الأقطار تناقضات متعددة البواعث ..

إنّ هذه التجزئة القائمة مرفوضة من الناحية الإسلاميّة ولكن كيف تكون الوحدة في ظروف العصر وواقع الأمة ؟ وكيف نتعامل مع هذه التجزئة ؟

٢- **العلاقة بين كل من الحاكم والمحكوم كيف تكون** ؟ ونضرب أمثلة : (التعددية الحزبية) ، هل نقبلها في ظل نظام دستوري في عرف زماننا .. سواء كان ملكياً أو جمهورياً ، أم نرفضها ؟ .. هل ندخل في تعاون (تحالف) مع نظام علماني أم لا ؟ وهل .. ؟ وهل .. ؟ ، وهذه مجرد أمثلة .

٣- **دور كل من الرجل والمرأة في المجتمع** : إذ لا يخفى أن تكوين المجتمع قد طرأت عليه تغييرات فرضت على الأمة أن تعيد النظر في توظيف طاقاتها .. ومن ذلك (طاقة المرأة) ، بمعنى أن الأوضاع الجديدة طرحت سؤالاً يحتاج إلى جواب . والسؤال : أيهما أكثر نفعاً للأمة : أن يبقى دور المرأة في المجتمع كما عهدته الأجيال المتأخرة من المسلمين ؟ أم يمكن أن يكون لها دور آخر ؟ ، وإذا كان هذا هو الجواب ، فما هو ؟ وما شروط القيام به ؟ إنها قضية تحتاج إلى موقف .

من هذه الأمثلة يظهر بوضوح أن الحركة الإسلاميّة بأمس الحاجة إلى تعميق رؤيتها السياسية والاجتماعية والفكرية .. حتى تتمكن من رؤية الواقع كما هو ، وهذا يؤهلها ، مع القراءة الصحيحة للإســـلام ، للقيـــام بمتطلبات الاجتهاد ، وهو ما تحتاجه الحركة الإسلاميّة في تحركها .

ثالثاً : تعدد مناهج العمل وتنازع جماعات التغيير

وهل يخفى على أحد تعدد طرق عمل جماعات التغيير الإسلاميّة ؟ ، وهو تعدد موجود حتى في القطر الواحد والمدينة الواحدة!! . فهناك –مثلاً– من وصلت به تجاربه وتقديراته لأوضاع البلاد التي يتحرك في شروطها إلى اعتماد (الجهاد السياسي) فأعلن قبوله للعبة الديمقراطية ، وهناك من خالفه واعتمد (الجهاد العسكري) سبيلاً لتغيير الأوضاع الفاسدة ، وهناك من رفض الجهاد السياسي والجهاد العسكري ورأى الاقتصار على (الجهاد الفكري التربوي) وهناك .. ، وهناك ..

والمشكلة هي أن بين أصحاب هذه المناهج خصومة : أسلحتُها الفتاكة (**التجهيل**) و(**الغمز بالعقول**) و(**النيل من النيات**)!! . وغاب الحوار الأخوي والتناصح اللذين بهما تبنى الثقة والمودة ، وتشيد جسور التعاون الذي يقود إلى تقارب وجهات النظر ، وربما تطابقها .

رابعاً : ما أكثر الجنود وأقلّ القادة

والمقصود بالقادة هنا تلك المجموعة التي تقود العمل (ميدانياً) إذ على كاهل هؤلاء يقع عبء التربية والتوجيه وقيادة القاعدة .. فهم أشبه بالضباط وضباط الصف في الجيش .. هؤلاء هم الذين يعيشون مع الجنود ويتعاملون معهم مباشرة ، وهم الجسر الذي يربط الأفراد بالقيادة الموهوبة. أما إذا وقع النقص في القيادة الميدانية وفي القيادة الموهوبة .. فلا تسل عن ضخامة هذا العائق .

إنّ عدد أبناء العمل الإسلاميّ لا يتناسب مع عدد القادة الميدانيين .. وهذا من أبرز أسباب ضعف التكوين اللازم بكل أبعاده .. ولذلك فإن عامة شباب الحركة الإسلاميّة ورجالها غير مؤهلين للقيام بواجباتهم بالشكل المناسب .

خامساً : هبوط همة معظم شباب الحركة الإسلاميّة

ونعني بهذا أن غالبية أبناء الحركة الإسلاميّة يمرون بمرحلة من حياتهم يسعون فيها إلى تحصيل العلم والثقافة ، وينشطون في الدعوة والعمل ، ثم إذا دخلوا ميادين الحياة العملية (الوظيفة ، الزواج ، التجارة ...) فإنهم يصابون بمرض هبوط الهمة .. وتمر الأيام وهم وقوف في أماكنهم ، ويصدق ما ينسب إلى الشافعي رحمه الله في وصف حالهم :

إني رأيت وقوف الماء يفسدهُ إن سال طاب وإن لم يجر لم يَطِبِ

إنّ الظروف التي نعيشها تطالب شباب الحركة الإسلاميّة أن يبادروا إلى (التكوين الذاتي) وأن لا ينتظروا من جماعات الدعوة كل شيء .. وبمقدار ما يرتقي رجال الحركة الإسلاميّة في مراتب الإيمان والعمل والوعي والبذل والتضحية والشجاعة .. فإنهم يرتقون بالعمل الجماعي .. وإذا أعرضوا عن الاهتمام بأنفسهم فسيكونون عبئاً على الجماعات في ظروفها الراهنة .

سادساً : تدني المستوى الإداري

لم يعد خافياً دور الإدارة في نجاح الأعمال أو إخفاقها .. والمتأمل في عمل الحركة الإسلاميّة يدرك ببساطة أن رجالها ما زالوا مقصرين إلى حدٍّ كبيرٍ في توفير الشروط الإدارية اللازمة لإنجاح أعمالهم .. فإذا عرفنا – مثلاً– أن من أبرز أهداف العمل الإداري : تحقيق الاستفادة من الطاقات بصورة إيجابية مؤثرة ، وأن ذلك لا يكون إلاّ برصدها وجمعها وتوجيهها إلى ساحة الواجب .. لعلمنا أن هذا لا يتحقق في ظروف عصرنا إلاّ إذا تفرغ لهذا العمل مجموعة متخصصة قادرة على القيام بمهام الإداري الناجح . وهذا ما تفتقر إليه الحركة الإسلاميّة المعاصرة .. ولذلك نرى كثيراً من الطاقات تهمل فتضيع ولا يستفاد منها . والغريب العجيب أن هذه القضية ليست في دائرة اهتمام كثير من الدعاة المخلصين!! .

سابعاً : العجز المالي

إذا قلنا إنّ معظم العاملين للإسلام لا يهتمون اهتماماً حقيقياً بمسألة (المال) اللازم للقيام بواجب اليوم والاستعداد لواجبات الغد .. فإننا لا نكون مغالين . ويرجع هذا إلى التربية الخاطئة التي تدفعهم دفعاً إلى البعد عن التفكير في توفير المال الضروري لنجاح العمل .. فإذا أضفنا إلى التربية الخاطئة نتائج التجارب المخفقة ، لوجدنا خوفاً من ولوج ساحة المال عن طريق الاستثمارات .

وهذا الذي يجعل كثيراً من الأعمال الإسلاميّة بدائية سطحية لا تساعد على نمو المواهب ، ولا توفر الإمكانات لتطوير الطاقات . والعمل الإسلاميّ ما زال معتمداً على تبرع أعضاء الجماعات في معظم ما يقوم به من أعمال .. وهذا لا شك أمر طيب ، إذ يجب أن يتربى المسلم على الجهاد المالي باستمرار .. ولكن حاجة العمل الإسلاميّ إلى المال من أجل تنفيذ مشاريع التغيير تفرض على العاملين أن يخططوا لتوفير المال اللازم لما يريدون صنعه في عالم تحديات هذا العصر .

إنّ العجز عن توفير ما تحتاجه بعض النشاطات من المال ، هو الذي يسوغ لعدد من العاملين قرع أبواب أرباب المال والسلطان .. ولا يخفى كم ينال هذا المسلك من كرامة وإرادة الذين يسيرون في هذا الطريق .. إلاّ من رحم الله .. وهم قليل قليل! .

وبعد :

فإن الحركات الإسلاميّة في أمس الحاجة إلى مراجعة الذات ، لرؤية ما صنعت في الأمس ، وما ينبغي أن تصنع اليوم ، وإذا أرادت بناء غد أفضل كان لزاماً عليها أن تستشرف المستقبل .. وأن تعد العدة لتجاوز عوائق الحاضر .. فهذا يؤهلها للصمود في وجه تحديات المستقبل الكبيرة الرهيبة .. وإذا لم ينتبه الدعاة إلى بنيانهم الداخلي قبل فوات الأوان فإن الكارثة مدمرة .

ادخلوا في السلم كافة

التقيت –في بلد أوروبي– شاباً يمتلئ حماسة للإسلام .. وعلمت أنه خريج كلية أصول الدين .. وكان بيننا حوار نافع .. لقد سألت الشاب عن أمرين :

الأول : **ما اهتماماتك في مجال الدعوة ؟ .**

فقال : أهم شيء عندي هو الاشتغال بتصحيح العقيدة .

الثاني : **ما الكتب التي تقرؤها وتقتنيها في مكتبتك ؟ .**

فأجاب : ليس غريباً أن تكون مطالعاتي منصبة على كتب السلف في العقيدة .. ككتب ابن تيمية وتلميذه ابن القيم رحمهما الله تعالى .. فهي مصدر الحق في مسائل الإيمان .

ثم ظهر من الحوار أن مسائل العقيدة التي تشغل باله إنما هي تلك التي طرأت على المسلمين في قرون ماضيات ، وهي بدع ما تزال فلولها موجودة في ثنايا البلاد الإسلاميّة اليوم .

وتركز الحوار حول مدلول مصطلح (العقيدة) وما يناقضها قديماً وفي عصرنا .. وذكرت لجليسي أنه لا يكفي لمعرفة ما يناقض الإيمان أن نقرأ كتب السابقين من علمائنا الأبرار .. فقد جدت في الأمة قضايا يحسب كثير من الناس أن لا صلة لها بالعقيدة .. وهي –عند التحقيق– من صلب الإيمان .. وهذه القضايا لا سبيل إلى معرفة حقيقتها إلاّ بالرجوع إلى علماء العصر .

ولمست لدى الشاب أنه لا يشاطرني الرأي .. فلجأت إلى الماضي أضرب له منه الأمثلة .. فقلت :

إنّ عظمة أسلافنا رحمهم الله تكمن في تعلمهم (الإيمان) ومعرفتهم بما يناقضه .. حتى وإن كان الذي يناقضه يلبس ثوب الإسلام أو العقلانية .. فهم أدركوا بعمق أن العبرة للمعاني لا للألفاظ والمباني .. وإليك البيان ..

▪ حين هجمت الفلسفة الإغريقية على الساحة العلمية في أيام غفلة من المسلمين .. أحدثت هزّة عنيفة في عقول رجال الفكر الذين درسوا الفلسفة وتأثروا بها قبل أن يحصّلوا معرفة بالإسلام تعصمهم من التأثر بنظرة الفكر الوافد إلى الكون والحياة والإنسان .. وإلى الخالق ﷻ .. فلما توسعت معرفتهم بالإسلام وجدوا تعارضاً بين ما تقرره العقيدة الإسلاميّة وبين ما أفرزته الفلسفة .. فماذا يصنعون ؟ .. لقد عمدوا إلى تأويل النصوص الشرعية لتتفق مع أصول الفلسفة .. فوقعوا في شر كبير ، تسرب عن طريقه إلى فكر المسلمين وإيمانهم معانٍ غريبة عملت عملها في الأجيال .. وكانت من أسباب بعدهم عن الهداية الحقة .

ولكن الله تعالى قيّض للمسلمين علماء ربانيين .. كابن تيمية رحمه الله .. وقفوا في وجه الانحراف الفكري وأكدوا الحقيقة التي يجب أن لا تغيب ، وهي : إنّ نصوص الوحيين (القرآن والسنة) هي الأصل الوحيد في معرفة الحق الذي أوحى به الله عزَّ وجلَّ .. وأنه لا يجوز لمسلم أن يستقبلها بمقررات سابقة .. ثم يبحث عن طريقة يوفق فيها –بزعمه– بين النقل والعقل .. ومن يفعل ذلك فقد أساء وأخطأ .

▪ وحين غزت صوفية عجمية المسلمين وانتزعت فريقاً من حملة العلم من ميدان العمل والجهاد .. ورمتهم على هامش الحياة !!.. يتأثرون بإفرازات الجهلة الذين سيطروا على مراكز التأثير في الأمة ولا يؤثرون .. ويظنون أنهم بصنيعهم هذا ناجون واصلون إلى الله .. وأن غيرهم محجوبون!! .

فلما رأى علماء محققون .. كابن تيمية .. هذا الوباء ينال من الفكر الإسلامي ويطعن العزائم في مقتل .. هبوا يصححون المفاهيم .. وبينوا بوضوح أن (العبادة) ليست محصورة في الصلاة والذكر والصوم ونحو ذلك.. بل إنّ معنى العبادة يشمل كل عمل من أعمال القلب والجوارح .. وخاصة (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) فهذه العبادة تطالب كل مسلم بأن يكون مراقباً لحركة الفكر والأخلاق والمعاملات في الأمة .. فما رآه صالحاً أيده ودعا إليه . وما رآه طالحاً حذر منه وسعى في إزهاقه صابراً على ما أصابه في عمله هذا .

▪ وحين طمع أعداء خارجيون كالتتار في بلاد الإسلام في أعقاب تسرب الوهن إلى قلوب عامة المسلمين.. نهض رجال أشداء من أهل العلم .. كابن تيمية .. يحملون السلاح ويحرضون على منازلة العدو الغازي الذي يهدف إلى تحطيم الإسلام وإذلال المسلمين ..

▪ وحين قصّر العلماء .. وهم جهاز التفكير في الأمة .. في القيام بدورهم فقدت الأمة ربانها الأمين ، فأسندت مهام قيادة سفينتها إلى غير الخبير ، وهؤلاء أسلموا المسلمين إلى شرور مستطيرة في السياسة والاجتماع والاقتصاد حفرت أخاديد في تربية جموع المسلمين ..

فلما فشا التقليد وغاب العلماء عن قيادة الأمة .. هبّ رجال مخلصون كابن تيمية ، فدعوا إلى (الاجتهاد ونبذ التقليد) مبينين مفاسد حصر الأجيال في حدود رؤية جيل واحد .. ومرشدين إلى وجوب اجتهاد كل جيل في كل ما يجد ويتطور في حياة الناس .

ثم قلت : ونحن يا أخي في زمان تهجم فيه على المسلمين مسائل لها مساس بالعقيدة .. ومشكلات تؤثر في سلوك أبناء العالم الإسلامي ، ولا ريب أن الاهتمام بها جميعها واجب شرعا .. وأضرب أمثلة توضح ما أرمي إليه :

١- إقصاء الإسلام عن الحكم : هذه المسألة تحمل في طياتها .. إبعاد الناس بالترغيب والترهيب عن منهج الله عزَّ وجلّ .. وعلاقتها بالعقيدة نأخذها من نصوص الوحي .. فنحن نقرأ مثلاً قول الله تعالى في سورة النساء [٥٩-٦٠] : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيدًا** ﴾ .

والحكم بما أنزل الله يعني : أن تعود مؤسسات الأمة إلى الإسلام ؛ فالمؤسسة السياسية يجب أن تصدر عن الإسلام .. والمؤسسة الاقتصاديّة يجب أن تلتزم بما شرع الله .. والمؤسسة التعليمية يجب أن تقيم برامج التربية والتعليم على نظرة الإسلام إلى الإنسان والكون والحياة .. وهكذا كل المؤسسات التي تعمل في الأمة وتؤثر فيها .. ولا يجوز أن ينحصر مفهوم (تطبيق الشريعة) في العقوبات ونظام الأحوال الشخصية ، كما يُفهم من كثير من الدعاة إلى تطبيق الشريعة الإسلاميّة في زماننا .

٢- انتشار المذاهب الهدامة في بلاد المسلمين : كالعلمانية والشيوعية والرأسمالية والوجودية والاشتراكية .. هذه المذاهب أنشأت حالات فكرية ونفسية وأخلاقية لم تألفها أمة المسلمين من قبل .. وظهر في بلاد المسلمين أناس يُصلُّون خمسهم ويصومون رمضان ويحجون بيت الله .. ثم هم يحملون في عقولهم وقلوبهم دعوات جاهلية ولا يشعرون بالإثم أو بالتناقض ، وهذا يرجع إلى أسباب منها :

- النظر إلى الإسلام .. بسبب غلبة الجهل .. كما ينظر أبناء الغرب اليوم إلى دينهم ..
- تغليب المصالح الخاصة على الدين في القضايا التي تتعارض فيها المصالح مع دين الله عزَّ وجلَّ .
- الاعتقاد بأن تشريعات الإسلام لم تعد مناسبة للعصر!!

من هذه الإشارات يتضح أن هذه المذاهب أثرت في العقيدة تأثيراً مباشرا .. فالعلمانية مثلاً تؤمن ببعض الوحي وترفض منه كل ما يتعلق بشؤون الحياة .. وتدبر معي كيف يقرر ربنا الكريم أن هذا الموقف مرفوض بموازين الإيمان :

﴿ ... **أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ** ﴾ [البقرة: ٨٥] .

٣- احتلال الأعداء لأرض الإسلام : كما هو الحال في فلسطين وأفغانستان .. وهي بلاد يعيش جيلنا مأساتها .. أما البلاد التي يسيطر عليها الروس .. فإنها منسية من قبل عامة المسلمين .. وا أسفاه[١٣] .

إنّ احتلال غير المسلمين لأرض الإسلام يحمل في ثناياه : سعي المحتل إلى بثّ فكره وما يدين به ، وتوهين فكر المسلمين وإبعادهم عن الإسلام بقصد سلبهم من دافع المقاومة ورفض سيطرة الغرباء .. فالقضية في حقيقتها صراع عقدي .

وبعد ضرب الأمثلة قلت :

هذه القضايا وأضرابها من أهم ما يجب أن يهتم به العاملون للإسلام باعتبارها قضايا تمسّ (الإيمان) ، وقد رأينا كيف كان علم العلماء المحققين شاملاً لما أنزل الله .. وكيف كان اهتمامهم بالواقع شاملاً أيضاً لما يجري في حياة الناس .

هزّ الشاب الطيب رأسه وقال : وهل يفهم من كلامك أن علينا أن نعقد هدنة مع بدع مثل (الدعاء عند القبور) و(ما أحدثته الطرق الصوفية) ؟!

قلت : لم أقصد هذا بكلامي ، فالبدعة مرفوضة سواء كانت قديمة أم جديدة .. ولكنني أدعو إلى ضرورة الاهتمام بجميع المشكلات التي تمس (الإيمان) ، وإلى إدراك تفاوتها في الخطورة بحيث نولي أشدها خطورة اهتماماً أكثر من التي تقل عنها في الأهمية ..

وهنا قال محدثي : هل تستطيع أن توجز ما تريد أن تصل إليه من حوارك معي ؟

قلت : حباً وكرامة .. لقد أردت أن أقول :

▪ **أرى ضرورة أن يعدد المسلم مصادر ثقافته الإسلاميّة .. لأن البعد الثقافي الواحد يظهر جانباً من ساحة الواقع وضروراته .. ويغيب ساحات أخرى أو يهمشها .. ولربما كان الذي اهتم به قد أصبح ثانوياً في تأثيره .**

▪ وأدعو إلى إدراك المتغيرات في الأجيال المتعاقبة وفي عصرنا .. وأحذر من خطورة حصر الأجيال في فهم جيل واحد ، أو اعتبار مشكلاته مشكلات الإنسان في كل عصر .

▪ **وأرى أن النظرة الجزئية إلى الإسلام تقدم دين الله تعالى إلى الناس بصورة لا يدركون منها أن الإسلام يخاطب الإنسان باعتباره مخلوقاً غير مجزأ .. ولا ريب أن هذه المسألة ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالعقيدة التي ترفض أن يعبد الإنسان ربه ببعض الشعائر وبعض الأخلاق بينما يعبد غير الله تعالى في السياسة والاقتصاد ونحو ذلك .**

(13) كتبت هذا الموضوع قبل رحيل الروس من أفغانستان ، وقبل تفكك الاتحاد السوفييتي ، وقبل انهيار نظام الحكم الشيوعي في كابل .

▪ وأخشى أن يكون الخوف من بطش الظالمين وراء التقديم الجزئي للإسلام من قبل بعض العاملين في الحقل الإسلامي .. بحيث ينظر هؤلاء إلى ما يسمح به الحاكم الظالم فينشطون في الدعوة إليه .. بينما يهمشون أجزاء أخرى .. فمن علم من نفسه ذلك وجب عليه أن يتوب .. لأن الله تعالى يقول :

﴿ ... **أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ** ﴾ [التوبة: ١٣].

جماعات الدعوة والعقيدة

يتردد في أوساط دينية كلام مفاده إنّ الحركات الإسلاميّة المعاصرة (سياسية القصد والبرامج) ، فهي لا تهتم بـ (العقيدة) التي وردت في القرآن والسنة ، ولا تولي عناية ملموسة لموضوع التعامل المباشر مع النصوص الشرعية في فقه المسائل العملية ، وهذه الجماعات تضم بين ظهرانيها مذاهب عقدية متعددة ، واتجاهات مذهبية متعصبة . ويتخذ أصحاب هذه النظرة مواقف تتباين من مجموعة لأخرى تجاه العمل الإسلامي الذي تقوم به جماعات الدعوة إلى الله عزَّ وجلّ .

فهل هذا الكلام صحيح ؟

لا ريب في أن موضوع (العقيدة) أهم وأخطر قضية في حياة الإنسان ، وأنه لا يصح تأجيل البحث في شروط صحتها وبطلانها ﴿ ... **فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى** ... ﴾ [البقرة: ٢٥٦] .. فإصلاح العقيدة ينبغي أن يكون الهمّ الأول لكل دعوة أو حركة إصلاحية ، لأن صلاح العقيدة أساس لكل صلاح ، وأي خلل أو غبش يقع في دائرتها يؤدي إلى انحرافات وبدع .. وقد يكون بعضها مخرجاً من أصل الملة والعياذ بالله تعالى . ومن هنا فإن تحرير معنى مصطلح (العقيدة) ضروري ، لأن هذه اللفظة لم تستخدم في عهد النبوة ، ولا مشاحة في المصطلحات ،كما يقول علماؤنا ، بشرط الاتفاق على معانيها لئلا يزن الناس الأمر الواحد بموازين مختلفة ، نظراً لتعدد المعاني التي تعطى للمصطلح الواحد ، وبناء على هذا أقول:

يلوح لي أن عامة فصائل الحركة الإسلامية لم تعلن عن انتماء عقدي معين ، بالمعنى المطروح في عدد من الدوائر الدينية الرسمية وغير الرسمية القائمة اليوم في معظم البلاد الإسلاميّة ، ويكاد معنى العقيدة عند هؤلاء ينحصر في (توحيد الأسماء والصفات) ، وفي بعض قضايا الشرك والبدع التي ظهرت في المسلمين خلال عصور الضعف والجهل ، وفي تقديري : يرجع عدم الإعلان عن انتماء عقدي بالمعنى المشار إليه إلى أمرين :

الأول : طبيعة التحديات العامة التي ولدت ونشأت في شروطها الحركة الإسلاميّة ، وخاصة بعد سقوط الخلافة العثمانية ، فقد كان على الدعاة أن يواجهوا تحديات كبيرة رهيبة . . تصر على إقصاء الإسلام من كل

شعب الحياة . . وهي مصممة على تنشئة أجيال المسلمين الجديدة على معانٍ تضعف من أثر انتمائهم الإسلامي أو تلغيه .

وهبّ مخلصون ينافحون عن الإسلام ضد محاولات اقتلاعه من الجذور .. وقاموا يجمعون القوى العلمية والدعوية لصد حملات التغريب .. فكان لهم جولات موفقة نلمس ثمارها في حياة أمتنا والحمد لله . وهذا يعني أن المشكلة التي تصدى لها الدعاة ليس لها علاقة بموضوع (توحيد الأسماء والصفات) كما عهدها أجيال سابقة، فقد ابتعد مجموع الأمة عن هذه المسائل الفلسفية .

الثاني : الوضع العلمي الشرعي الذي ترعرع في ظروفه العمل الإسلامي الحركي ، فقد كان هذا الوضع امتداداً لمراحل الجمود والجهل والتخلف العقدي والعلمي والحياتي ، وكان كثيرون ممن يحملون لقب (عالم) ويلبسون زيّ العلماء . . قد فقدوا المعرفة الشمولية بالإسلام كما أنزله الله عزَّ وجلّ . . ونتج عن الفهم الجزئي للإسلام أن ابتعد هؤلاء عن الاهتمام بحياة الناس وأوضاعهم وشؤونهم دون أن يشعروا بالإثم والحرج . . وتركوا -مختارين- ممارسة دورهم الريادي في حياة الأمة . . وانصرفوا إلى بحث مسائل العقدة معتمدين المنهج الذي سار عليه علماء الكلام . . واكتفوا في مجال الفقه العملي بالتقليد ، مقررين بارتياح أنه لم يترك السابق للاحق شيئاً . . وأن القضايا المطروحة في مجال الفكر والسياسة والاقتصاد والاجتماع . . إلخ قد فرغ منها السابقون لنا بإحسان! .

في هذه الظروف ، العامة والخاصة ، باشرت الحركة الإسلاميّة المعاصرة عملها ، وكان سلاحها في المواجهة هو (العقيدة) ، فهبت تعمل على إصلاحها .. وكان بدهياً أن توجه جلّ طاقتها لكشف وبيان جميع المسائل المعاصرة التي تمس العقيدة وتهددها ، ولنضرب مثلاً على ذلك بـ : (العلمانية) التي أضحت تعني في بلاد المسلمين : (فصل الدين عن الدولة) أي : فصل الدين عن الحياة ، فهذه المسألة وأضرابها تمسّ الإيمان (العقيدة) في الصميم .. وكثير من أهل العلم لم يكونوا مدركين خطورة (العلمانية) وظنوا أن مسائل العقيدة محصورة في الأمور التي قتلها بحثاً السابقون!! .

وحين آب إلى ربهم ناس من المسلمين ، وبدأت حركة الوعي بالإسلام تمتد وتكتسب أنصارا .. واكب هذا العمل تراكم كمّي ونوعيّ في المعرفة التي أقنعت كثيرين بضرورة الرجوع المباشر إلى القرآن والسنة ، من خلال أهل الاختصاص القادرين على الاجتهاد والنظر والترجيح بين آراء علمائنا السابقين وفق منهج ، وساعد على تعميق هذه النظرة العلمية الواعية انتشار حركة الطباعة ووسائل الاتصال المتنوعة .. ولكن انتشار وسائل المعرفة والاتصال طرحت أيضاً قضايا ، جديدة في طرحها قديمة في مضمونها ، وهي تدور حول طريقة التعامل مع النصوص الشرعية ، سواء في العقيدة أم في الشعائر التعبدية أم في الأخلاق ونظم الحياة .. وتسرب من قراءة كتب الأقدمين مسائل كان لها في ماضيات القرون دور في إفساد المسلمين بما شوهته من

معاني العقيدة في القلوب .. وهذه المسائل ما تزال معشعشة في دوائر محدودة .. إذا نظرنا إلى مجموع دوائر التأثير في العالم الإسلامي .. إلاّ أن الذين اطلعوا على كتب من سلف ، ورأوا في حياة من يخالطونهم مباشرة ما ينكرونه من المعاني الاعتقادية ، أزعجهم هذا الحال ، وخاضوا في حوار مع أولئك المخالفين لهم في فهم عدد من النصوص ، ووصل الحوار في حالات كثيرة إلى جدل مقيت ، أسفر عن الاتهام الذي يؤكد أن الحركات الإسلاميّة المعاصرة لا تعتني بمسألة العقيدة!! .

خلاصة وبيان

▪ لقد كان اهتمام جماعات الدعوة بالعقيدة كبيراً والحمد لله .. فقد تمكن هؤلاء الدعاة -بفضل الله- من إعادة الثقة بالإسلام على أنه نظام حياة شامل كامل ، بعد أن اهتزت هذه الحقيقة في القلوب والعقول .

▪ وإن اعتماد طريقة لدراسة العقيدة ، بحيث تجنبنا آراء البشر وموازينهم التي تسربت إلى مباحث العقيدة ، يعد أمراً ضروريا .. وهذا ما تفتقر إليه مجموعات أعضاء في جماعات الدعوة .. ولا يصح أن نعمم هذا على الجميع .. وفي اعتقادي : إنّ الذي يعصمنا من زلل الفهم وخلل العمل هو فهم العقيدة كما كانت في عهدها الأول .

▪ وحصر مباحث العقيدة في مسائل الأسماء والصفات ، والبدع الشركية الوافدة من الماضي .. ليس عملاً حسناً ولا يصح السكوت عنه .. فكم من طاقة طيبة أُهدرت في منازلة الذي يعيشون مع مشكلات الماضي ، في الوقت الذي نحتاج فيه إلى هذه الجهود البناءة في عملية التصدي لحملات تغريب الإنسان المسلم وعلمنته على امتداد الأرض الإسلاميّة ، وخارجها أيضاً!! ، وهي حملات تزداد ضراوة هذه الأيام ، وهذا لا يعني أننا ندعو إلى عدم توجيه جهود لحل مشكلات أصبحت في حياة الأمة ثانوية .. ولكننا نؤكد على إعطائها ما تستحقه من الاهتمام بحيث لا تشغلنا عن القضايا الكبرى .

▪ وبناء على ما تقدم أقول :

العقيدة : هي المعاني الشرعية القلبية التي تحدد للإنسان غاية وجوده ، وتبين له دوره في هذه الحياة ، وكيف يحقق ذلك . وهذا التعريف الموجز يعني ببساطة أنه لا يوجد أمر في حياة الإنسان .. مهما دقّ .. إلاّ وله صلة بالعقيدة ، وعلى الدعاة إلى الله عزَّ وجلَّ أن يهتموا بدراستها ، وأن يمارسوا عملياً شمولها لكافة نواحي النشاط الإنساني .

الجزئية والوقتية والارتجال

يكثر الحديث في هذه الأيام عن ضرورة خروج الحركة الإسلاميّة :

- من الجزئية إلى الشمول
- ومن الوقتية إلى الاستمرار
- ومن الارتجال إلى التخطيط

ويعترف عامة المتحدثين أنهم دون المستوى المطلوب اللازم لتحويل تلك الشعارات الجميلة إلى واقع ملموس .. وتعجب حين ترى أن الكثرة الكاثرة من أبناء الحركة الإسلاميّة لا يسلكون السبيل الموصلة إلى تحقيق ما يصبون إليه .. مع قدرتهم على ذلك!! ، ويزداد عجبك حين ترى معظم الإسلاميين يرون أن مجرد الاعتراف بالتقصير فضيلة!!

إنّ مشكلات الحركة الإسلاميّة ظاهرة معروفة لدى أبناء هذه الحركة .. ولكن معظمهم لا يفرقون بين (العجز) وبين (التقصير) ، فالتقصير –عندهم– مرادف للعجز ، ولذلك لا يحركون طاقتهم في الاتجاه الصحيح، الذي يسير بهم خطوات واثقة واعدة على درب الهدف الواضح .

لذلك كله رأيت أن أُذكّر بوجوب الاهتمام العملي بالمعاني التي سبق ذكرها من خلال تسليط الأضواء على بعض جوانبها:

أولاً – ما نعني بـ (لا للجزئية) و(نعم للشمول) ؟ نعني بذلك :

أ– فهم الإسلام فهماً شمولياً يساعد على إنزال كل مسألة في المقام الذي يريده الله عزَّ وجلّ .. وهذا الفهم يزودنا بالقدرة على التفريق بين (**الأسس**) وبين (**الفروع**) بحيث لا نغرق في الفروع ولا نهمش الأسس .

ب– معرفة الحياة البشرية معرفة شاملة تساعد على تمييز (الأمراض) من (الأعراض) بحيث لا تستهلكنا الأعراض ونهمل الأمراض .

وحين يدرك الفرد المسلم .. والجماعة الإسلاميّة هذين الأصلين .. فإن نتائج هذا الإدراك نلمسها من خلال سلوك عملي يتسم بالآتي :

١– العمل بالإسلام على أساس من الشمول والتوازن .

٢– القدرة على تمييز الأهم من المهم ، وتقديم الأهم عند التنفيذ على المهم إذا تعارضا .

٣– التحرك في مواجهة تحديات الواقع وفق خطة .

إنّ تقرير هذه المعاني سهل ميسور .. فما السبب في عدم ظهورها بقوة في حياة الإسلاميّين؟! .

إنّ السبب يرجع إلى عاملين ، خاص وعام :

١– **العامل الخاص** : ونقصد به :

- تهاون الفرد في دراسة الإسلام من مصدريه : القرآن والسنة .

- وتقصيره في صبغ حياته بما علم من الوحي .
- وإهماله لواجب تبليغ الرسالة وأداء الأمانة ونصح الأمة .

فالفرد مسؤول أمام الله عزَّ وجلَّ عن نفسه .. فإذا أقبل الفرد على دراسة الإسلام وفق منهج سليم ، وعمل بما علم ، كان ما يحصل عليه قوة للجماعة التي يعمل من خلالها .. وعلى المسلم أن يعلم أنه ليس مسؤولاً عن تقصير الآخرين .. وأنه لا يقبل منه عذر إذا كان قادراً وقصَّر في بذل الجهد ﴿ **بَلِ الإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ۞ وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ** ﴾ [القيامة: ١٤-١٥] .

٢- **العامل العام** : ونقصد به (الوسط الحركي الذي يترعرع فيه الفرد) . فهذا الوسط تعشش فيه عوامل تكبل الفرد والجماعة عن الانطلاق الصحيح على طريق البناء الفكري والنفسي والسلوكي والتنظيمي .. إلخ . وينتج عن ذلك مشكلات تضعف الإنتاج وتبقي على العوائق الداخلية .

والمخرج من هذه المشكلات يكمن في :

١- تحديد طريقة عملية تحقق دراسة الإسلام غضاً طريّاً كما أنزله الله عزَّ وجلَّ .

٢- تحديد السبيل الأقوم لفهم الواقع .

٣- تكوين المؤهلين القادرين على الربط بين النص الشرعي وواقعنا المعاصر .

لقد آن للحركة الإسلاميّة أن تخرج من حالة (العموميات) في شعاراتها وطروحاتها إلى حالة (تحديد المراد وكيفية تحقيق ما تريد) ، ولنضرب مثلاً على ذلك : من المعلوم أن جميع العاملين المخلصين يقولون : إنّ القرآن والسنة هما مصدر التلقي في جميع شؤون حياتنا .. وهذا القول يعني في ظروف عصرنا :

١- تمييز القرآن والسنة من آراء الرجال ومما علق بهما خلال القرون الماضية وهو ليس منهما .. فعملية (التصفية والتنقية) أساسية وضرورية ، وبدونها يتسرب إلى العقيدة وإلى الفكر وإلى الشعائر التعبدية وإلى الأخلاق وإلى الأحكام العملية .. أمور غير مشروعة فتكون عائقاً يمنع من السير السليم .

٢- المحافظة على منهج السلف الصالح في فهم القرآن والسنة من أن يؤثر في فهمها وتطبيقهما آراء غير سليمة تصدر من المعاصرين .. وهذه العملية الأساسية والضرورية تحتاج إلى علم غزير ، وسهر دائم من قبل الجميع ، وبخاصة الذين يشرفون على العمل الجماعي .

هذا بعض ما يفرضه القول بأننا ننطلق في أعمالنا من القرآن والسنة .. فإذا نظرنا إلى آثار هذا القول في ممارسات الحركة الإسلاميّة المعاصرة ، فإننا نلاحظ أن معظم فصائل هذه الحركة لا تولي موضوع (التصفية والتنقية) ، والمحافظة على نقاء القرآن والسنة ، اهتماماً كبيراً وعمليا .. وهذا يؤثر في عملية تربية الأفراد كما يجب .

فإذا كان نصيب القرآن والسنة ما ذكرنا .. على الرغم من مكانتهما السامقة في قلوب المسلمين!! . فليت شعري ما نصيب أهدافنا ومقرراتنا من العناية العملية ؟! ، إنّ عدم وضع البرامج العملية المؤدية -بمرور

الزمن- إلى تحويل تلك الشعارات والمقررات إلى واقع ملموس .. مع القدرة على ذلك .. سبب من أهم أسباب ضعف العمل الإسلاميّ في الرؤية وفي الإنتاج .

ونضرب مثلاً آخر : يقرر عامة العاملين في الحقل الإسلاميّ أن على قيادة الحركة وأفرادها أن لا يشغلوا أنفسهم بالجزئيات عن الكليات .. وأن ينظروا إلى مكان كل عمل من مجموع عملهم ، إذا أرادوا الحفاظ على الطاقات وتحقيق الأهداف . ومفهوم هذا الكلام أن هناك مخططات تتناول جميع النشاطات وفق برنامج زمني يقدم الأهم على المهم ، والكليّ على الجزئيّ ، ويوازن بين واجبات الفرد وواجبات الجماعة بحيث لا يطغى واجب على آخر .. إلخ .

هذه النظرة الشمولية المتوازنة يرددها معظم أبناء الحركة الإسلاميّة .. ولكنهم يغتالونها في الواقع العملي .. خذ مثلاً على ذلك طريقة دراسة القضايا المطروحة على الأفراد وعلى أجهزة العمل الجماعي .. فإنك ترى بوضوح أن كل قضية تناقش بحماس وكأنه ليس هناك واجبات غيرها .. وكثيراً ما يستهوي الفرد والجماعة جمال القرارات دون نظر إلى القدرة على التطبيق والاستمرار ، ودون نظر إلى مكانها من مجموع العمل الواجب في حدود الزمان والمكان والإنسان!! .

ويأتي التطبيق العملي ليكشف الأخطاء ويظهر العجز .. والغريب العجيب هو أن يصر العاملون على تبرير الأخطاء وإلقاء اللوم على العوامل الخارجية بدلاً من ردِّ الأمر إلى المرض الذي يفتك بنا .. ألا وهو مرض الجزئية في العمل!!

ثانياً – ماذا نعني بـ (لا للوقتية) و(نعم للاستمرار) في العمل ؟ نقصد بذلك أموراً ، منها:

- إنّ على الإسلاميين .. قيادات وأفرادا .. أن يستمروا في بناء أنفسهم وتنظيم جهودهم .. فهذا يساعدهم على إعادة النظر في أوضاعهم وتطويرها ..
- وإنّ على الإسلاميين أن يدركوا أن العمل في سبيل الله عزَّ وجلَّ لا يصح أبداً أن يكون عملاً موسمياً ، بحيث ينشطون في أوقات وينامون في أوقات أخرى .. ولا يصح أن ينشطوا في ظروف الرخاء فإذا جاءت الشدّة أخلدوا إلى الأرض .. ولا يصح أن يبذلوا في الشباب ، فإذا تقدمت بهم السن مالوا إلى الجمود وافتخروا بما صنعوا في سالف الأيام ..

إنّ شيوع الأخلاق الوقتية في صفوف أبناء الحركة سبب أساسي من أسباب عجز الحركة الإسلاميّة عن تحقيق كثير من أهدافها .. إذ تضطر الجماعات العاملة إلى تكييف عطائها مع الظروف التي يستعد فيها أعضاؤها لعمل إيجابي .. والغريب أن يكون ناس من هؤلاء الموسميين الوقتيين في بذلهم ونشاطهم ممن يرفع عقيرته متهماً الجماعات الإسلاميّة بالتقصير في الواجبات!! .

إنّ في الحركة الإسلاميّة طاقات مؤهلة لفهم أكمل وعطاء أفضل ، بشرط أن تستمر في بنائها الفكري والنفسي والسياسي والأخلاقي .. ومن المؤلم أن يقبل كثير من أبناء الحركة الإسلاميّة على القراءة وسؤال أهل، العلم وأن يبذلوا جهوداً جيدة في مرحلة .. ثم إذا بهم يتوقفون عن الطلب فتمر الأيام بسرعة ، وإذا بهؤلاء متخلفون في كثير من الجوانب .. فإذا كان هؤلاء في موقع قيادي حبسوا رؤية الواقع في حدود نظرهم المتخلف .. وهذا باب من (الوقتية) المسيطرة في أرجاء الحركة الإسلاميّة! .

ثالثاً – ما نعني بـ (لا للارتجال) و(نعم للتخطيط) ؟ نقصد بذلك وجوب البعد عن (العفوية) في العمل ، وعن (السذاجة) في التخطيط ، واجتناب (ردود الفعل الجاهلة) في مواجهة التحديات الساخنة .

ولنأخذ مثلاً يقرب المقصود : إنّ القيادات الإسلاميّة الجماعية تقرر الآتي : لا تستطيع الحركة الإسلاميّة الوصول إلى أهدافها ما لم تسلك سبيل التخطيط القائم على معرفة دقيقة بالواقع وبالإمكانات المتوفرة فعليا . وتسمع من قياديين كبار : إنّ أعداءنا يتربصون بنا ، ويجب أن نفوت عليهم فرص ضرب الحركة وتصفيتها .. وهذا يفرض علينا أن نتسلح بالوعي ؛ فلا ندخل في معركة .. مهما كانت طبيعتها .. إلا بعد أن نستكمل استعدادنا .. لأننا حينئذ نفرض المواجهة على الآخرين .

هذا الكلام الطيب يجعل كثيرين مطمئنين إلى سلامة المنطلق وحكمة التخطيط .. ولكن سرعان ما تأتي الحوادث لتعطي الدليل على أن ذاك الكلام الطيب إنما يسيطر على الكتب والخطب أكثر مما يعيش في الواقع!! وعندئذ تظهر خيبات الأمل المريرة!

وأعجب شيء في هذه المأساة (منطق تبرير العجز)!! . نعم إنّ القدرة على التخطيط لا تملكها الجماعات بين عشية وضحاها .. ولكن عامل الزمن مع الرؤية الواضحة والجهد الهادف يكفلون بعد حين من الدهر توفير قدرات مبصرة واعية مستوعبة تقود العمل الجماعي على بصيرة .. وهذا ما تقصر في صنعه الحركة الإسلاميّة اليوم .

خلاصة وبيان

نستنتج من كلامنا السابق طائفة من المعاني نعيد طرحها مع شيء من البيان :

١- إنّ كل فرد مسؤول يوم القيامة عن نفسه .. فلا يصح أن يلقي تبعة تقصيره في بنائه العقدي والفكري والنفسي والأخلاقي على العلماء وقادة الحركات الإسلاميّة .. وخاصة في مرحلة كالتي تمر بها أمتنا.. فرحم الله امرءاً عرف زمانه واستقامت طريقته .

٢- وإنّ تقصير الفرد في الارتقاء بمستواه إلى ما هو أفضل باستمرار عامل من عوامل ضعف الجماعات.. لأن قوة الجماعة بقوة أبنائها .. وهذا يعني أنه لا يكفي أن ننقد تقصير الجماعة في واجبها نحو

أعضائها ، في الوقت الذي لا نقدم فيه لأنفسنا ما يرتقي بها إلى المستوى الذي يجعلنا نساهم في رفع مستوى قدرة الحركة على العطاء والتأثير .

٣- وإنّ على قادة الحركة الإسلاميّة .. قبل غيرهم .. أن يحاربوا بجدٍّ جميع الظواهر السلبية سواء تلك التي ذكرناها كأمثلة أم غيرها .. إذا أرادوا أن يكون البناء سليماً والخطوات ثابتة والنتائج إيجابية .. ولا يتم لهم ذلك إلاّ إذا اتخذوا الخطوات العالمة لترسيخ الشمول بدلاً من الجزئية ، والتخطيط بدلاً من الارتجال والعفوية ، والاستمرارية بدلاً من الوقتية والموسمية .

٤- ونحن لا ننكر أن في الحركة الإسلاميّة المعاصرة جوانب إيجابية محمودة .. ولكن مجموعها ما يزال دون المستوى المأمول بكثير .. ولا يليق أن نضرب بعض الأمثلة على نظرتنا الشمولية أو عملنا المعتمد على التخطيط ونحو ذلك .. في الوقت الذي تسيطر فيه الجزئية والارتجال والوقتية على عامة نشاطاتنا الفردية والجماعية .. لأن تلك الأمثلة ربما خدرتنا ، وجعلت من حولنا يؤمنون بقدرات لا نملكها .. فإذا وقف هؤلاء على جوانب الضعف ، بسبب التقصير ، فإن ثقتهم بالعمل الجماعي تهتز ، وفي هذا خسارة كبيرة .

ظاهرة الشيخ والمريد

لقد أتى على أمتنا حين من الدهر سرى في كيان القوى الفاعلة فيها : (أرح نفسك من التدبير ، فما قام به غيرك لا تقم به بنفسك) و(ينبغي للمريد أن يكون بين يدي شيخه كالميت بين يدي مغسله ، يقلبه كيف يشاء ، أو كالريشة في مهب الري)!! .

فهل استطاعت الحركات الإسلاميّة المعاصرة ، قيادات وأفراداً ، تجاوز الآثار المدمرة التي تفرزها مثل هاتين العبارتين من الناحية العملية ؟ .

إنّ الذي يوسع النظر في أحوال الفعاليات الإسلاميّة لا يخطئه أن يرى انتشار ظاهرة (الشيخ والمريد) في معظم جنبات العمل الإسلامي .. ثلة قليلة تفكر وتقدر ، وكَمّ كبير ألقى مسؤولية التفكير والتقدير عن كاهله .. وقد ساهم في استمرار هذه الظاهرة في الأمة -وإن اختلفت صورها الجديدة عن صورتها في الماضي القريب- أمور ، منها :

أ- عجز (القيادات) عن رؤية أن ما هم عليه من أسلوب العمل إنما هو تقليد لأجيال التخلف .. بل إنّ فيهم من يتجاوز هذا إلى إلباس هذه الظاهرة لبوس الشرع ويتهم الداعين إلى إشراك القواعد في التفكير والتخطيط بأنهم يعانون من لوثة التغريب!! .

ب– إخفاق كثير من القياديين في تحويل رؤيتهم إلى واقع ملموس .. فهؤلاء يقرون بضرورة توسيع دائرة أصحاب القرار .. وبوجوب البعد عن المركزية في التفكير والإدارة . ولكنهم حين يدخلون مجال تطبيق ما رأوه صواباً ، ويصطدمون ببعض العقبات الكامنة في نفوس أبناء أمتنا ، فإن هؤلاء الواعين يفرون من معالجة الواقع المريض إلى القول بأن أمتنا لا يصلح لها إلاّ أسلوب (الشيخ والمريد) ، فيهدمون بذلك ما اقتنعوا به من صور تنظيم الحياة والجهود!! .

ولا ريب في أن تقرير القواعد شيء .. وصبغ الحياة بها شيء آخر .. فكم من إنسان حاله كما قال الشاعر :

إذا صعدوا الأعواد قالوا فأحسنوا ولكن حسن القول كذبه الفعل

ونضيف إلى ما سبق الإشارة إلى أن أكثر الأمراض فتكاً بالإنسان ، هي تلك التي يظن المصاب بها أن لها (مسوغاً) من تاريخه أو واقعه ، أو يغلب على ظنه أنها دين يتقرب إلى الله تعالى بالعمل بها!

هذا الكلام يخص دور القادة الذين يحملون مسؤولية الأخذ بأيدي من استجابوا للدعوة إلى رؤية أفضل وجهد أثمر ، أما إذا دققنا النظر في (أعضاء العمل الجماعي) فإننا نرى ما يذهلنا .. ومن جملة ما يرى في هذا المجال :

أ– استعداد كبير لإلغاء (التفكير) بمجرد أن يكون هؤلاء أعضاء في عمل جماعي ، مع اعتقادهم أن هذا واجب القيادة فقط .

ب– واستعداد أكبر لتأويل أعمال قيادتهم ، لاعتقادهم أنهم إذا لم يفعلوا ذلك سقطت هيبة القيادة ، وإذا وقع هذا تعرض العمل الجماعي إلى التصدع والتشقق ، وهذا ما يجب إبعاد العمل عنه .

ت– وفي الأعضاء فئة ترى السلبيات الناتجة عن ظاهرة (الشيخ والمريد) ولكنها عاجزة عن رؤية سبيل الخلاص ، وهذا يرجع إلى ضعف تحصيلها العلمي والمعرفي .

ث– أما الذين أدركوا أنهم ليسوا أجهزة استقبال ، وأن من حقهم أن يرسلوا داخل الجماعة ما لديهم من رأي وعلم .. مشاركةً منهم في تطوير العمل المشترك .. فإن معظم هؤلاء لم يحصلوا مستوى أخلاقياً يساعدهم على التصرف الحكيم في عرض ما عندهم من إمكانات .. وكان تعبيرهم عن رؤيتهم في كثير من الحالات عنيفاً ، لأنهم لم يمارسوا المشاركة في التفكير والتقويم ، وهذا العنف في التصرف يدفع القيادة وقطاعاً كبيراً في العمل الجماعي إلى رفض آرائهم ، وينشأ –في العادة– عن هذا الوضع المعقد مشكلات تتمثل باتهامات تمس العقول والمقاصد بسوء ، وتقود إلى ألوان من التناحر الذي يصدع القلوب ويمنعها من اللقاء على عمل منتج .

نخلص من هذا العرض لظاهرة سلبية في العمل الجماعي الإسلامي إلى تسجيل عدد من الملاحظات ؛ مساهمةً في تطوير الأعمال الجماعية التي تشكو من ظاهرة (الشيخ والمريد) :

١- ينبغي أن يترقى استعداد القيادات الإسلاميّة ، في كافة مستويات المسؤولية لقبول النقد والمعارضة ، حتى يساعدوا أبناء الحركة على تنمية أخلاق تكامل الأجيال والجهود ، وعليهم أن يصبروا على أخطاء الممارسة ، وبذلك يقصون من الوسط الإسلامي أخلاق تصادم وتنافر الجهود وجمود التفكير ، وعلى الذين يقومون بدور قيادي في العمل الإسلامي أن يدركوا أن الناشئة في هذا العصر إذا لم يترعرعوا في بيئة تتيح لهم تعبيراً مناسباً عن رؤيتهم ، وتفسح لهم مجالاً طيباً لممارسة تجاربهم .. فلسوف يصابون بشلل التفكير ، وسيحملهم العمل الجماعي بدلاً من حملهم له . وإذا عوفي بعض الناشئة من شلل التفكير فلربما لا يجد أمامه إلا العنف سبيلاً للتخاطب مع العمل الذي يراه مكبلاً للطاقات ، ولا يسمح بتعدد الاجتهادات ، بل يرى قادته أن هذا التعدد شر يجب أن يحارب!! .

وتكون النتيجة في غالب الحالات خروج مجموعات من التنظيم ، فإما أن يتابعوا عملهم ، وإما أن تخمد جذوة الدعوة في قلوبهم ، فيقعد بهم الشيطان عن العمل ، وقد تكون النتيجة حرباً داخل التنظيم تدوم سنوات .. فتأكل الجهود وتصيب الأخلاق في مقتل .

٢- يجب أن يسعى أبناء الحركة الإسلاميّة إلى رفع مستوى علمهم بالإسلام ، ومن ذلك (أصول العمل الجماعي) ؛ فالإسلام حين يأمرنا برص الصفوف وجمع الجهود للقيام بالواجبات المشتركة ، فإنه يؤكد باستمرار على أن المسؤولية الفردية لا تسقط إذا انضوى المرء تحت لواء جماعة إسلامية ، بل إذا قام الحكم الإسلامي فإن المسؤولية الفردية لا تزول . ولا ريب في أن مسؤولية الفرد بحسب قدرته ، فمن رزقه الله تعالى قدرة حسن الفهم ، وحكمة التصرف ، ثم أهمل تطويرها وابتعد عن استخدامها ، فإن هذه القدرة تصاب بأمراض تفتك بها .. وقد أحسن الإمام الشافعي فيما نسب إليه حين قال :

إني رأيت وقوف الماء يفسده إن سال طاب وإن لم يجر لم يطب

إنّ على الفرد مسؤولية المشاركة الفعالة في عمل جماعي ، وعليه أن يتعلم كيف يتصرف في ظروف زمانه ومكانه ومن حوله ، بحيث يدرأ المفاسد ويحقق المصالح ، فالتصرف الصحيح هو الذي يقوم على فقه عميق وإدراك دقيق للنص الشرعي وللظروف .

٣- فإذا تحرك القادة نحو توسيع دائرة أصحاب التفكير والقرار ليتناسب ذلك مع حاجات العمل الجماعي ، وليتواكب مع ظروف المرحلة التي تمر بها الأمة ، واتجهت القاعدة إلى تنمية مسؤوليتها عن العمل المشترك وتطويره ، فإن كثيراً من الخير سيحصل بإذن الله عزَّ وجلّ .

ولا يخفى أن الممارسة سيكون فيها أخطاء تصدر من الجميع .. لأن كثيرين لم يتعلموا السير في هذا الطريق .. والحل هو أن يفسح العمل الجماعي المجال والوقت اللازمين لتعلم أصول التفكير الجماعي والتحلي

بما يتطلبه من أخلاق ، ونحذر من اغتيال الفكرة الصالحة بحجة هبوط مستوى أخلاق الأمة عموماً ، وأعضاء العمل المشترك باعتبارهم جزءاً من أمتهم ، فهذا لا يحل المشكلة بل يزيدها تعقيدا .

الحق والباطل

هناك حقيقتان يجب أن يدركهما المسلم إدراكاً عميقاً وهو يتلمس لنفسه وأمته سبيل الخلاص مما تعانيه في هذا العصر .

أما **الحقيقة الأولى** فهي : إنّ المعركة بين الحق والباطل .. مستمرة .. لا تنطفئ نيرانها ولا يخبو أوارها في يوم من الأيام .. وأن هذه المعركة تشتد أحياناً فتظهر في صورة صدام مسلح .. وهذه الحالة لا تدوم .. ذلك أن للسيف يوماً ثم ينصرم .

وأما **الحقيقة الثانية** فتقرر أن سبب الخصومة بين الحق والباطل إنما هو (تغاير العقيدة) وأن الاختلاف في (النظم) و(الأخلاق) ونحو ذلك . ما هو إلاّ صور (تعبيرية) متفرعة عن أصل الخلاف .. ذلك أن (العقيدة) التي يؤمن بها الإنسان هي التي تحدد له نظرته إلى الكون والحياة .. كما تحدد له غاية وجوده الإنساني .

ولا ريب في أن العقيدة التي تقوم على الإيمان بالله وحده ، والإيمان بالنبوة ، تفترق في موازينها وقيمها عن العقائد التي يتواضع عليها البشر ..

هاتان الحقيقتان تلزمان المسلم بأمور ، منها :

١- أن يكون المسلم جندياً يقظاً في جميع مراحل عمره .. وأن يسعى إلى امتلاك جميع الأسلحة المتوفرة في صراعه مع المبطلين .. وأن يعمل على ابتكار أسلحة خاصة به .

ونؤكد أن الجندية في الإسلام لا تعرف لغة (وضع السلاح) أو (الهدنة) مع الباطل .. فإذا سكت السلاح الماديّ ، الذي يُلجأ إليه لردّ عدوان المبطلين وكفّ أيديهم ، كانت الأسلحة الأخرى مشرعة : **تبلغ** ، **وتعلم** ، **وتربي** ، **وتجادل فكر الباطل بالتي هي أحسن** .. إلى آخر ما يجب الاستمرار في ممارسته من واجبات تحقق أمر الله تعالى : ﴿ **وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾ [آل عمران: ١٠٤] .

٢- ومن أول ما يجب أن يدركه الجندي المسلم أن مواجهة الباطل .. لا تثمر .. إلاّ من خلال عمل جماعي تلتقي فيه القلوب والجهود ، وتتكامل الكفاءات ، ولنتأمل قول الله تعالى : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ** ﴾ [الصف: ٤] .

٣- ضرورة أن يتعرف المسلم إلى العقائد التي تجب مفاصلتها ومنازلتها .. وأن يقف على الظلم الذي توقعه بالإنسان .. لكي يعطي الدليل على فسادها .. وكمثل على ذلك نذكر قول الله تعالى : ﴿ **وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ** ﴾ [الأعراف: ٨٥]

٤- ويجب أن يوفر دعاة الحق .. شروط التغلب على المفسدين في الأرض .. وهذا الواجب يفرض أن يقوم العمل الإسلاميّ على أسس واضحة واعية ، وأهمها :

أ- حساب الخطوات والتصرفات في كلّ مرحلة :

وهذا إنما يتم من خلال سلوك الطريق القاصد إلى الأهداف .. وفق منهج يعتمد المرحلية .

وتحقيق هذا المطلب الحيوي الضروري يتطلب أن يكون العاملون قادرين على مقاومة .. داء البطء في العمل .. ورفض تفسيرات الخائرين ، وتسويغات المخلدين إلى الأرض .. كما يتطلب منهم التصدي بشجاعة لوباء الاستعجال .. المفضي إلى حرق المراحل ..

ومن تأمل المخاوف والمغريات التي توجه سهامها إلى المسلمين العاملين بقصد النيل من إرادتهم .. وصرفهم عن منهجهم وأهدافهم .. يدرك أن هذا كله من جملة الابتلاء ﴿ ... **وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ** ﴾ [الأنبياء: ٣٥]

كما يدرك أن كشف الطريق المستقيم .. في خضم الابتلاءات .. وسلوكه .. مسؤولية يسأل عنها المرء يوم القيامة .. ولا يشفع له عذر إذا قصر في كشف السبيل القويم ، أو تصرف بطريقة جاهلة تنأى به عن سنن التغيير ﴿ **بَلِ الإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ۞ وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ** ﴾ [القيامة: ١٤-١٥] .

ب- التعامل الإيجابي مع الظروف المتغيرة :

وهذا يكون بتوفر الاستيعاب المتجدد للمتغيرات .. ولا يتحقق هذا الشرط إلاّ إذا كان العاملون قادرين على :

١- **تنمية المعرفة بالإسلام .**

٢- **تجديد التعرف إلى الواقع الذي لا يثبت على حال باستمرار .**

أما تنمية المعرفة بالإسلام فنعني بها على وجه الخصوص :

أن يستمر المسلم في دراسة الإسلام من مصادره المعتمدة ؛ وفق منهجية تؤمن للدارس معرفة شاملة متوازنة بالإسلام كما أنزله الله عزَّ وجلّ .

وهذا الشرط يقودنا إلى إبراز أمرين :

١- يجب أن ندرس الإسلام بطريقة تستوعب الأصول الشرعية وفروعها ، مترابطاً بعضها مع بعض بحيث ننـــزل كل مسألة في مكانها .. فلا نعطيها (حجماً) في أنفسنا وواقعنا أكبر أو أصغر من الحجم الذي أراده الله عزَّ وجلّ .

٢- يجب تنقية مصادر التلقي من آراء البشر التي تسربت إلى فكر المسلمين وأذواقهم في مراحل الجهل والضعف ؛ فزادهم ضعفاً وجهلا .

وأما تحديد التعرف إلى الواقع فإنه ليس من نافلة العمل .. بل هو ضرورة لكي نكون على علم بالأرض التي نتحرك عليها .. وأبرز ما تجب معرفته عن الواقع :

- كيف تكوّن هذا الواقع ؟
- ما القوى المؤثرة في صنع هذا الواقع ؟ وما وسائلها ؟
- معرفة الخريطة السياسية .. والتيارات الفكرية .
- حقيقة القوى الإسلاميّة .

وبما أن قوى الواقع ليست ثابتة ؛ فإن إعادة النظر .. باستمرار .. في متغيراتها من قبل جهة راصدة .. تملك القدرة على الفهم والتحليل .. وتوجيه الجهود الطيبة على طريق البناء .. واجب .. والتفريط فيه قاتل .

وفي هذا المقام نحذر من الاعتماد على كتب علمائنا السابقين في التعرف إلى الواقع .. ونحذر أيضاً من اعتماد ما رأوه مناسباً في عصرهم من أسلوب معالجة الانحراف .. ولا ريب أن في عصرنا مشكلات تحدَّرتْ إلينا من أعصُر الجهل .. فهذه يجب أن تعالج .. ولكن المشكلات الجديدة أشد فتكاً بأمتنا ، فـ(العلمانية) على سبيل المثال أخطر من بدعة (دعاء الموتى) . فهذه البدعة وما شابهها من البدع آخذة بالتواري .. ومعظم الذين يهتمون بها من الجيل الذي على أبواب الرحيل .. أما الضلالات الجديدة فإنها تفتك بالأجيال الشابة التي بأيديها مقاليد أمور الأمة .. ولذلك يجب أن تولى اهتماماً أكبر من غيرها .

وبعد :

فهذه المعاني التي أتينا على ذكرها بحاجة إلى إدراك عميق من قبل الساحة الإسلاميّة ، إذا أراد العاملون أن يسيروا في دعوتهم على بصيرة .. والبصيرة تفرض تعانق **الصواب** مع **الإخلاص** .. وتوفرهما شرط لقبول العمل عند الله تعالى .. وبهما يكون البناء سليما .

الدعاة والتحديات

لا يخفى على من يراقب أوضاع شعوب الأرض في عصرنا أن يرى الحضور القوي الساحق للمدنية الغربية في حياة الشعوب كافة .. ويرى أيضاً أن معظم الناس –من غير أهل الغرب– يعيشون حالة الإعجاب بالغرب ومنجزاته ، ويشعرون بالغثائية تجاه الغربيين .. ويدرك أن هذه الحالة النفسية ليست محصورة في أنظمة الحكم وأحزاب التغريب .. وإنما تمتد وتتسع لتشمل رجل الشارع البسيط .. ولا يفوت المراقب أن يرى الأسباب التي أصَّلتْ هذا الموقف النفسي .. والتي يمكن حصرها في :

أولاً : فراغ الشعوب ، أو تفريغها من مضمون عقدي واع .

ثانياً : تدفق المعلومات ، عبر وسائل الاتصال المتعددة ، من جانب واحد .. هو الغرب.

فالغرب .. بثقافته ومصالحه .. يفرض على شعوب الأرض تحديات كبيرة .. ويبذل جهوداً جبارة من أجل إحكام قبضته على أزمة الأمور في أنحاء المعمورة .. ولكنه يخص الشعوب الإسلاميّة بأخبث وأخطر تحدياته . ويرجع سبب هذا التخصيص في تقدير مخططي السياسة الغربية إلى أمرين:

الأول : طبيعة العقيدة الإسلاميّة .. التي تطالب المؤمنين أن يكونوا .. قادة .. رادة .. وتصر عليهم بإلحاح أن يحطموا قيود العبودية والتبعية .. سواء كانت من حديد أم من حرير .

الثاني : موقع البلاد الإسلاميّة .. وما فيها من ثروات تجعل منها قوة يحسب لها حسابها إذا استيقظ المسلمون .

وإلى هذا أشار اللورد كامبل باترمان عام ١٩٠٧م حين قدم تقريره الشهير عن علاقة الدول الاستعمارية بالدول المستعمرة .. إنه يقول : (**إنّ الخطر الذي يهدد الاستعمار يكمن في البحر المتوسط الذي يقيم على شواطئه شعب واحد يتميز بكل مقومات الوحدة والترابط ، ويجب أن تعمل الدول الاستعمارية على تجزئته وتفككه ، وإقامة حاجز بشري وغريب يمكن للاستعمار أن يستخدمه أداة في تحقيق أغراضه**)[١٤] .

وبديهي أن نقول : إنّ تحديات الغرب ما كان لها أن تعمل عملها في المسلمين إلاّ بعد أن فقد المسلمون (المناعة الذاتية) .. فحينما احتك الشرق المسلم الغافي بالغرب المتحفز النشط .. تسرب إلى كثير من قلوب المسلمين (الشعور بالإحباط) وانتشر اليأس من قدرة المسلمين على العودة إلى المشاركة في قيادة ركب البشرية انتشار النار في الهشيم .. فأصيبت القلوب والعزائم بمصاب ما فوقه من مصاب .. وكان فقدان (الثقة بالذات)

(14) نقلاً عن (جهاد شعب فلسطين خلال نصف قرن) لصالح مسعود أبو بصير صفحة ٢٧ ، ويراجع (واقعنا المعاصر) لمحمد قطب ، ص ٣٩٠ وما بعدها .

أكبر مأساة تحل بالمسلمين الذين صاروا مضرب المثل في الهوان على أهل الغرب ، وفي العبث بهم وبمصائرهم جهاراً نهارا .

ولكن يأبى الله عزَّ وجلَّ أن تموت هذه الأمة ، مصداقاً لوعده الكريم : ﴿ **هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ** ﴾ [الصف: ٩] .

وأُسقط في أيدي مراكز القرار في الغرب ، وفي بلاد المسلمين ، حين سمعوا أصوات دعاة الحق تنبعث من ليل التضليل الرأسمالي والاشتراكي .. ومن ظلمات هزائم المسلمين الفكرية ، والسياسية ، والاقتصادية ، والأخلاقية ، والعسكرية .. ومن أحضان الرعب والإرهاب والاستبداد السياسي ..

وراع شياطينَ الإنس أن رأوا رجالاً ونساء قد أجابوا داعي الحق .. فثاروا على أنفسهم ، وعلى واقعهم .. وباشروا السير في طريق تحطيم قيود اليأس والاستسلام لقوى التغريب .. وأقض مضاجع الطواغيت ارتفاع صوت دعاة الإسلام في مواقع متعددة على امتداد الساحة الإسلاميّة ، وهم يعلنون رفضهم لاحتلال العقول .. وما أسفر عنه .. ورفضهم لاحتلال الأرض المسلمة .

ويشاء الله عزَّ وجلَّ أن يحدث أمر عظيم له أثره البعيد في مستقبل الصراع بين الحق والباطل .. حين بدأت جماهير الأمة المسلمة تتجه إلى الإسلام .. فقد جاء على المسلمين أعصر من الجهل والتخلف العقدي انحصر خلالها العلم بالإسلام والعمل به ، والإرشاد إليه ، في فئة (العلماء)!! [١٥] . أما اليوم فإن الأمر آخذ في التغيير .. وقد أصبحنا نرى رجالاً ونساء يحملون أمانة الدعوة إلى الله .. ونرى فيهم الكبير والصغير .. والطالب والعامل والموظف .. والطبيب والمهندس .. و .. و ..

هذه الظاهرة تمثل عاملاً أساسياً في التغيير الاجتماعي الذي لا يتم إلا إذا شاركت فيه جميع فئات الأمة ، بدليل قول الله تعالى : ﴿ ... **إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ** ... ﴾ [الرعد: ١١] .

وأعداء أمتنا يدركون خطورة تبني الأمة للقضايا المصيرية ، وخطورة التفافها حول قيادة واعية .. لذلك فإنهم يبذلون كل ما في وسعهم ومن أجل تجهيل الشعوب .. ومن أجل عزل الدعاة عن جماهير الأمة .. وهذه القضية تمثل تحدياً لدعاة الحق الذين يجب أن يسلكوا في دعوتهم سبيل (الحكمة) التي تفوت على شياطين الإنس والجن الإيقاع بين الدعاة وبين الجماهير[١٦] .

---

(15) بصرف النظر عن الصورة التي كان يقدم بها الإسلام من قبل هؤلاء العلماء !! .

(16) حين ندعو حملة رسالة الإسلام إلى التزام الحكمة في التصرفات .. فإننا لا ندعوهم إلى التراخي في العمل باسم العقلانية والحكمة ونحو ذلك .. وإنما ندعوهم إلى الاستمرار في البذل والعطاء وفق منهج واضح المعالم .. فإذا كانت الحكمة

ما سبق ذكره يقودنا إلى التأكيد على ما يأتي :

١- إنّ قوى الشرّ العالمي تخطط وتعمل ما في وسعها بقصد السيطرة على الإنسان .. وفي أيديهم إمكانات هائلة .. هذه حقيقة .. ولكن على الرغم من ذلك يبقون بشرا .. فيهم ضعف البشر وجهل البشر وأهواء البشر .. وهذا يعني ببساطة أن مواجهتهم ممكنة .. والتغلب عليهم ليس مستحيلا .. شريطة أن يزول (حاجز الخوف) من بطشهم من القلوب .. وأن نكتشف طريق الخلاص .

وعلى الدعاة أن يكونوا قدوة صالحة لجماهير المسلمين .. في الشجاعة والإقدام والوعي وحسن التدبير .. كما عليهم أن يدركوا بعمق أن أي خيار في التعامل مع قوى التسلط العالمي والمحلي له آثاره في حياتهم وحياة أمتهم .. وهذا باب من أخطر أبواب التحديات التي تواجه الدعاة .

٢- يجب أن يهتم الدعاة إلى الله ببناء الإيمان في القلوب باعتباره الأساس في بناء الإسلام في نفس المسلم .. والإيمان لا يصح فيه التقليد .. وحين انتشر التقليد في الإيمان برزت إلى الوجود أجيال مشوهة .. وقد تحدث العلماء عن الشكوك التي تنتاب إيمان المقلد .. وقرروا :

إذ كل من قلد في التوحيد إيمانه لم يخـــل من ترديـــد

فالإيمان (العقيدة) يقين يقوم على علم .. ويجب الاهتمام به أكثر من المعارف الإسلاميّة التي تتعلق بالجوارح .. وهذا الذي نقوله دلت عليه الآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية ، والسيرة العملية للجيل الأول ..

▪ فمن الآيات قول الله تعالى : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ** ... ﴾ [فصلت: ٣٠] .

▪ ومن كلام النبوة نذكر ما رواه الإمام مسلم عن سُفْيَانَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الثَّقَفِيِّ ﷺ قَال : قُلْت : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، قُلْ لِي فِي الإِسْلاَمِ قَوْلاً لاَ أَسْأَلُ عَنْهُ أَحَدًا بَعْدَك . قَال : « **قُلْ آمَنْتُ بِاللَّهِ ثُمَّ اسْتَقِمْ** » .

▪ والتطبيق العملي يحدثنا عنه عبد الله بن عمر رضي الله عنهما .. فيقول : (لقد عشت برهة من دهري وإن أحدنا يؤتى الإيمان قبل القرآن ، وتنـــزل السورة على محمد ﷺ فيتعلم حلالها ، وما ينبغي أن يقف عنده كما تعلّمون أنتم القرآن . ثم لقد رأيت رجالاً يؤتى أحدهم القرآن قبل الإيمان ، فيقرأ ما بين فاتحة الكتاب إلى خاتمته ، ما يدري ما آمره وما زاجره وما ينبغي أن يقف عنده)[١٧] .

تقضي بتقديم الروح .. فالموت شهادة ، وإذا كان القيام بالواجب يقود إلى زنازين السجون .. فالسجن خلوة ، وإذا قدر النفي .. كان سياحة ..

(17) أخرجه الطبراني في الأوسط ، وقال الهيثمي : رجاله رجال الصحيح .

والعقيدة تؤخذ من مصدرين :

الأول : من المراجع الإسلاميّة الأصيلة .. ومعرفة المراجع المعتمدة .. ضرورة .. بعد عصور تسرب فيها إلى حياة المسلمين أفكار دخيلة تركت بصماتها في كل مجال .. والتهاونُ في البحث عن المراجع النقية يحدث مشكلة لها آثار غير حميدة .. وتجدر الإشارة هنا إلى أن الحاجة ماسة إلى كتب أصيلة تتحدث عن العقيدة بما يناسب عصرنا وما فيه من مشكلات عقدية .

الثاني : من أهل الإيمان الذين يعيشون إيمانهم .. ويلتزمون بمقتضياته في حياتهم .. وما أعز هؤلاء في زماننا ؟!!

لذا فإن العمل الإسلاميّ الجماعي مطالب بتخريج أفواج مؤمنة عالمة عاملة ، واعية قادرة على البناء السليم وقيادة التيار الإسلامي الشعبي .. فإذا قصرت في هذا الواجب فإن البناء سيبقى هشاً لا يثبت للزعازع.. وهذا من أخطر التحديات .

٣- إنّ ارتباط الدعاة بجماهير المسلمين ارتباطاً عضويا .. واجب وضرورة :

واجب .. لأن المعركة تساهم في تحرير جماهير الأمة من القيود الظاهرة والخفية ..

وضرورة .. لأن المعركة مع قوى الشرّ بحاجة إلى كل جهد مخلص .. ولأن المستبدين في أرضنا يريدون فصل الفئة المؤمنة الواعية عن الأمة ليسهل خداع الجماهير .. ولئلا تجد عمليات تصفية الدعاة عقبات تذكر .

والارتباط الوثيق بالأمة لا يكون من خلال علاقات إنسانية فردية فقط .. وإنما يكون بتبني قضايا تؤثر في فكر الإنسان ، وأخلاقه ، واختياراته ، على مستوى الأمة .. ونضرب أمثلة توضح ما نقصد :

أ- الأمن السياسي : إنّ نظرة عجلى إلى واقع المسلمين تكشف لنا أن كافة الشعوب الإسلاميّة ممنوعة من المشاركة في صنع حاضرها .. ومن التفكير في صياغة مستقبلها .. وأن هذا المنع جعل من عامة المسلمين (كمّاً) لا قيمة له ، وزرع فيهم صنوفاً من المفاهيم والأخلاق المدمرة للفكر وللإرادة .

هذه المسألة الخطيرة التي تتعلق بكرامة الإنسان لها صلة وثيقة بالإيمان .. وعلى الدعاة أن ينهضوا لتحرير إنساننا من ألوان القيود التي تكبله .. وهذا العمل يفرض عليهم تضحيات .. وتضحيات لا بد من تقديمها بإخلاص قياماً بمقتضيات الإيمان بالله تعالى وبنبوة محمد ﷺ .

ب- الأمن الغذائي : إنّ افتقار العالم الإسلاميّ إلى الأمن الغذائي -بصرف النظر عن أسبابه- دفع جماهير المسلمين إلى ألوان من الخوف والخنوع والمسكنة .. وفتح الأبواب أمام القوى الخارجية للتدخل في شؤون أمتنا .. وفسح المجال لجيوش صامتة تسللت إلى البلاد الإسلاميّة تحت ستار المساعدات الإنسانية ، بينما تعمل على سلخِ المسلمين من الإسلام!!.

ت- **الأمن الصحي** : وعامة ما قلناه بخصوص فقدان الأمن الغذائي نقوله في فقدان الأمن الصحي في دنيا المسلمين اليوم .

وفي هذا المقام أُذكِّر بحديث رسول الله ﷺ الذي يعلمنا فيه أهمية الأمن السياسي ، والأمن الصحي ، والأمن الغذائي ، في حياة الإنسان .. ونصه : « **مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِنًا فِي سِرْبِهِ ، مُعَافًى فِي جَسَدِهِ ، عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ ، فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا بِحَذَافِيرِهَا** »(١٨)

٤- يجب أن تتلاقى قلوب وجهود الدعاة في ساحة الواجب .. لأن ما يواجه المسلمين من تحديات .. أشرنا إلى بعضها .. يفرض عليهم أن يلتقوا في ساحة العمل الإيجابي الجاد .. ولكن لكي يجتمعوا على أمر واحد فإن عليهم أن يحددوا (أهداف الإسلام في هذا العصر) وأن يتفقوا على (المنهج الواجب اتباعه من أجل تحقيق أهداف الإسلام) وأن يلتزموا به .

وما لم يتفق الدعاة على (منهج العمل) فإن اختياراتهم لن تصل بهم إلى تعاون مثمر وتلاقٍ صميمي .. وستبقى مواجهتهم للتحديات ضعيفة الأثر واهنة .. ونرجو أن يستجيب العاملون المخلصون .. على تفاوت اجتهاداتهم .. إلى نداء الواجب قبل فوات الأوان .. وأن يرتقوا بأنفسهم ومن معهم إلى مستوى ما يطالبهم به الإسلام العظيم .

افقهوا
عِبَر الماضي ودروس الحاضر

الحروب الصليبية .. عنوان بارز في تاريخ العلاقة بين دار الإسلام وبين البلدان الأوروبية .. وهو يحمل في طياته عبراً نحتاج إليها في حاضرنا الذي نعيش فيه مع عنوان آخر هو (**الاستعمار**) الذي ينطوي مضمونه على طبيعة علاقة بلاد المسلمين بالدول الغربية ذات النفوذ المتغلغل في شعاب الأرض .

ولا يخفى أن جيوش الدول الأوروبية ما كان لها أن تخترق حدود المسلمين .. فتصل في الماضي إلى ساحل بلاد الشام وإلى بيت المقدس .. وتصل في وهن المسلمين الحاضر إلى معظم أقطار العالم الإسلاميّ ؛ فتقيم فيه أوضاعاً سياسية ، وعقدية ، وفكرية ، واجتماعية ، واقتصادية .. تزيده ضعفاً إلى ضعف ، وهواناً إلى هوان .

(18) أخرجه الترمذي وغيره بسند حسن ، وانظره في (صحيح الجامع الصغير) للألباني برقم ٥٩١٨ .

أقول : ما كانت جيوش الفرنجة قادرة على أن تفعل بالمسلمين ما فعلت .. لولا توفر شروط داخلية في بلاد المسلمين ساعدت الإفرنج على إلحاق الهزيمة بهم .

وليس من مقاصدنا الغوص في الحديث عن الأسباب التي قادت إلى جرأة العدو الخارجي على التفكير في المهاجمة والاحتلال بشكل مفصل ، ولكننا نشير إلى أمرين حدثا قبل الحروب الصليبية ولنا فيهما عبرة :

الأمر الأول : **ولادة آراء سياسية فرقت الأمة إلى شيع ، وكل شيعة رفضت الحوار مع الآخرين ، ولم تكتف بذلك ، بل سعت إلى المشاكسة وتجميع القوة لحسم الموقف لصالحها ، فوقعت صدامات دموية تركت بصماتها حقداً ونفوراً وكيدا ..**

وكان من نتائج هذه الفرقة أن أصيبت شبكة العلاقات الداخلية في الأمة بضربات قاصمة ، وكان التعبير عن ضعف الصف الداخلي يتبلور في مظهرين :

أ- ضعف السلطة المركزية .

ب- ظهور قوة الأمراء في الأمصار ، وتناحرهم .

الأمر الثاني : **شيوع مذاهب عقدية ، وفكرية ، وذوقية ، في صفوف العامة والخاصة من المسلمين .. وهذه المذاهب كانت خليطاً من بعض تعاليم الإسلام ومن مقررات الفلسفة الإغريقية ، ومن بقايا عقائد أمم شرقية دخلت في الإسلام ولم يستطع فريق منهم تطبيق قاعدة (التخلي والتحلي) كما يجب .**

ونتج عن هذا المنهج التوفيقي ما يأتي :

- اشتغلت مراكز التفكير في الأمة بخصومات حادة صرفتها عن واجبات أساسية كبرى .
- تدخلت السلطة السياسية في الجدل الدائر ، وكان موقفها من المخالفين قاسياً في بعض الأحايين .
- أما عامة الناس فكان تأثرهم بالفكر الصوفي كبيراً ، وكان في صف المنتسبين إلى العلم من سار في هذا الطريق .. فكانوا فتنة للعامة الذين لا يملكون قدرة على التمييز بين المتبع وبين المبتدع!.
- وأسفرت هذه الحالة عن ظهور فرق شذّ كثير منها عن أصل الملة .. وبعضها أخفى عقائده مشكلاً تيار الباطنية .. وهذه الفرق كانت بلاء على المسلمين .. وخاصة حين تضعف الأمة المسلمة أو يهجم عليها عدو من خارجها .. وفي هؤلاء يصح قول القائل :

وســوى الرومِ خلف ظهرك رومٌ فعلــى أي جانبيــك تميـــل ؟!

وواجهت الأمة مشكلة (تآكل جبهتها الداخلية) ففقدت بذلك قسطاً كبيراً من مناعتها .. وكانت عرضة لهجوم العدو الخارجي وظهور آثاره ..

ولكن احتلال الصليبيين لجزء من دار الإسلام ولد في المسلمين أوضاعاً جديدة حركت فيهم المعاني التي كانت بعيدة عنهم زمن الغفلة .. وغفلة الشعوب كما قال محمد إقبال :

لحظــةً يا صاحبــي إنْ تغفــلِ ألفُ ميــلٍ زاد بُعــدُ المنــزلِ

وما زالت معاني الحق تتحرك في نفوس خيرة وتسترشد بعلماء أجلاء .. على الرغم من وجود الدخن في حياتهم .. أمثال أبي حامد الغزالي رحمه الله (٤٥٠-٥٠٥) ، وعبد القادر الجيلاني رحمه الله (٤٧٠-٥٦١) ، وقاد حملة الإعداد العسكري والسياسي رجال أشاوس ، وخاصة آل زنكي وصلاح الدين الأيوبي رحمهم الله تعالى .

وكان الانتصار على الصليبيين ثمرة جهود بُذلت من خلال الزمن ، وحققت في ظروف ذلك العصر هدفين :

١- **إحياء السنن ، ومحاربة البدع ، وإقامة العدل .**

٢- **توحيد بلاد مصر والشام .**

وفي غفلة من المسلمين .. والتي ما نزال نعيش أيامها ونتجرع آلامها .. وقع مثل ما حصل في الماضي .. فهجمت البلاد الأوروبية -وهي في عنفوان قوتها- على دار الإسلام وسيطرت على معظم أجزائها .. وفجأة فتح المسلمون أعينهم ليروا جيوشاً أوروبية تدوس أرضهم ، وتقيم أنظمة الحياة كما يحلو لها .. تنبه المسلمون من نومهم العميق العميق فوجدوا أنفسهم أمام طريقين .. وعليهم أن يختاروا أحدهما : طريق الإسلام أو طريق التغريب . والأول أقرب إلى قلوب الكثرة الكاثرة .. ولكنها جاهلة به كما أنزله الله عزَّ وجلَّ . والثاني يفرض على سالكه الانسلاخ من الإسلام ، أو تشويهه في الفكر وفي الممارسة .

وكان ساسة الغرب يعلمون من ماضيات الأيام أن السيطرة العسكرية ، والسياسية ، والاقتصادية ، ستؤدي إلى احتكاك ساخن مع الشعوب الإسلاميّة ، وهذا ينمي عند شعوب العالم الإسلاميّ رفض الغرب وكل ما يأتي عن طريقه ، وهذا -إن حدث- مشكلة كبرى بالنسبة للاستكبار العالمي الغربي ، ولذلك اتجه الغرب إلى تحقيق هدفين يضمنان له -حسب تقديراته- سيطرة مقيمة على مقدرات المسلمين ، وتبعية لا تحول :

الهدف الأول : **تحطيم البنية الفكرية الإسلاميّة في قلوب المسلمين .**

الهدف الثاني : **زرع الشعور بعظمة الغرب وحضارته ، والدعوة بإلحاح إلى اتباع نماذج الغرب في الفكر والسياسة ونظم الحياة .**

واستطاع الغرب أن يسخر طاقات كبرى لتحقيق أهدافه .. فعن طريق (التعليم) الذي أمسك بزمامه نفث سمومه .. وبواسطة (الحركة الاستشراقية) بث آراءه .. وعن سبيل (الإعلام) دعا إلى حضارته وحطّ من شأن

الإسلام .. وتلاقت أهداف رجال السياسة مع أهداف رجال الكنيسة فتعاونوا أوثق تعاون على إبعاد المسلم عن الإسلام المنـــزل من عند الله عزَّ وجلّ .. وهذا الذي صُنع بالمسلمين نعبر عنه بـ(الغزو الثقافي) ، وهو أشد خطورة من الغزو العسكري .

ونعترف أن الغرب قد تمكن من الوصول إلى بعض ما يريد ، ونرى الدليل على ذلك في فرضه التجزئة وما صاحبها من ظهور وانتشار الفكر القومي المفرق .. كما نراه في بروز تيار قوي قطع صلته الحقيقية بالإسلام ، وبالتراث الإسلامي ، واعتمد في صياغة حياته وفي معالجة جميع قضايا الإنسان والحياة على النموذج الغربي ، وتمكن دهاة الغرب من وضع أزمة أمور المسلمين في أيدي (دعاة الفكر الدخيل) من أبناء أمتنا .. وبسيطرة الفكر المتغرب على الساحة السياسية ، والثقافية ، والتشريعية ، والقضائية ، والاقتصادية ، والإعلامية .. تراجع (دعاة الفكر الأصيل) إلى موقع الدفاع .. وكان الصراع حادّاً بين الفكرين : الأصيل والدخيل .. وأما غالبية المسلمين فإنهم ما يزالون يعانون من آثار الجهل بالإسلام .. والكثرة الكاثرة لم تختر التخلي عن الإسلام و لم تعلن ولاء واعياً لدين الله عزَّ وجلّ .. لذلك يسهل استغلالها ، وتطويعها ، من قبل القابضين على شؤون الحياة في أقطار العالم الإسلامي ..

هذا الواقع يبشر بخير كبير .. فدعاة الإسلام تمكنوا –رغم ضعف الإمكانات– من الوقوف في وجه التغريب .. وكوّنوا تياراً إسلامياً شعبياً يزداد قوة مع الأيام .. ونرى في هذا الواقع –رغم قسوته– تباشير عودة الوعي بالإسلام إلى شعوب العالم الإسلامي .

إنّ معركة الأصلاء مع الدخلاء ضارية .. ودعاة الإسلام قادرون –بإذن الله– على تحرير أمتنا من (الاستعمار) بشتى صوره وألوانه .. وتحرير الإنسان من نير الأنظمة التي تحكم العالم اليوم وتمارس (المسخ) لحقيقة الإنسان في كل الأرض .. وتحقيق النصر على الباطل يفرض على دعاة الحق القيام بواجبات تسير بهم على سنن النصر بإذن الله عزَّ وجلّ .. ومن هذه الواجبات التي تبرز لنا من الماضي ودروس الحاضر نذكر الآتي:

١– **يجب أن يقوم العمل الإسلامي على البصيرة** : والبصيرة تحتم :

أ– **وجود أهداف واضحة** تربي في المؤمن بها الاستعداد للوفاء بمقتضيات العمل على تحقيقها .. وتحديد أهداف الإسلام في عصرنا إنما هو ثمرة تعانق فهم النصّ الإسلامي وإدراك الواقع .

ب– **الالتزام بالمنهج الإسلامي الموصل إلى الأهداف** فإذا لم يتوفر مع الأهداف الواضحة المنهج الربانيّ ، فسوف يجد العاملون أنفسهم يوماً ما كما قال القائل :

ســـارت مشـــرقة وسرت مغرباً شـــتان بين مُشَـــرِّقٍ ومُغَـــرِّبِ

فالمنهج الرباني يجعلنا (سننين) في أعمالنا .. وينأى بنا عن الجزئية في النظرة إلى الأمور ، كما يبعدنا عن الارتجال في التخطيط والممارسة .. فإذا كان المنهج –على سبيل المثال– يفرض علينا أن نكون جسراً تعبر عليه أجيال قادمة إلى النصر .. كان لزاماً علينا أن نرضى بهذا الدور .. وهو عظيم .. ولا يصح أن نصر على قطف الثمرة بأيدينا .. فالانتصار الحقيقي لكل جيل إنما يكون بالتعرف إلى الواجبات والنهوض إليها بقوة .

ت– **اتخاذ الوسائل المناسبة لكل مرحلة** من مراحل العمل . وهذا الشرط كثيراً ما يغفل عنه في الساحة الإسلاميّة ، التي تعاني من مشكلات (حرق المراحل) و(الاستعجال) ، الذي يضيع الجهود ، ويُقصي عن تحقيق الأهداف .

٢– تربية النفس والأجيال القادمة على رفض الواقع الفاسد وعدم التفاهم معه :

فالمبطلون في كل عصر يقابلون الصالحين بسيل من التهم والأراجيف ، ومحاولات الاحتواء والتطويع .. ليدفعوهم إلى الاستسلام والقبول بالظلم والظلام ، أو ببعض ذلك .. هذه حقيقة .. والامتحان الحقيقي هو أن يدخل دعاة الإسلام معركة الحق والباطل في الواقع .. فإن استطاعوا الثبات فإنهم حملة رسالة ، وهذا يؤهلهم لقيادة سفينة الأمة والأخذ بقوة على أيدي من يريد خرقها .. أما إذا انهزموا في ساحة العمل فهذا يعني ببساطة أنهم ليسوا أهلاً لحمل الأمانة ..

ولذلك نرى وجوب أن يتربى الدعاة على العمل في ظروف الواقع وشروطه ..

▪ فالواقع البشري ، حين تكون مقاليد الأمور فيه بأيد غير صالحة ، يمارس أنواعاً من الضغوط على الصالحين ، ويحاول جذبهم إلى غير الحق .. وينادي المبطلون دعاة الهدى : (هلموا .. نعبد إلهكم سنة ، وتعبدون إلهنا سنة) . والداعية البصير هو الذي يفقه الموقف الرباني : ﴿ **لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ** ﴾ [الكافرون: ٦] .

▪ والواقع الضال فيه جواذب : ﴿ **وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ** ﴾ [القلم: ٩] والداعية يلتزم بالمنهج الرباني ﴿ **فَلا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ ۞ .... ۞ وَلا تُطِعْ كُلَّ حَلاَّفٍ مَهِينٍ ۞ هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ۞ مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ** ﴾ [القلم: ٨–١٢]

▪ والواقع الفاسد يتوسل بالأقربين الذين يصرخون في وجه الداعية قائلين : (أبقِ على نفسك وعلينا ، ولا تحملنا من الأمر ما لا نطيق) والداعية المتجرد لله يجيب بلسانه وحاله : (**والله ما أنا بأقدر أن أدع ما أنا عليه من أن يشعل أحدهم شعلة من الشمس**) فالمعركة مع الباطل المهيمن على كل شيء لا يمكن أن يخوض غمارها أقزام النفوس والإرادة ..

٣- **يجب أن يدرك دعاة الإسلام أن معركتهم مع الباطل الغربي معركة حضارية شاملة** .. وأن مواجهة الأوضاع القائمة لا تكون مثمرة إلاّ إذا قامت على (فكر شمولي) يرى جميع ساحات الصراع ، ولا ينحصر في ساحة أو بضع ساحات .

وحين يكثر المدركون لهذه الحقيقة العاملون بمقتضياتها .. ستبرز في حياة العاملين ظاهرة (القيام بواجب اليوم في إطار واجب الغد) وسنرى جيلاً (لا يشغله واجب المكان عن واجبات الزمان) .

٤- **يجب أن يكون الدعاة إلى الله تعالى هم الأمل في قلوب وأعين الناس** . وهذا لا يكون إلا إذا أحب العاملون للإسلام الناس ، وغاروا عليهم ، وأحسنوا الظن بالإنسان .. وإلا إذا هجروا موقف القاضي واتخذوا منهجاً لهم موقف الداعية .. وإلا إذا أعطوا الناس الدليل على قدرتهم على قيادة خطاهم إلى الخير ، والحرية ، والعدل .. وهذا له ثمنه وتكاليفه .. ويجب أن يدفع الدعاة تكاليف تحرير البشر من الأوهاق الفكرية والاجتماعية والسياسية وغيرها ..

٥- **ويجب أن يسعى حملة رسالة الإسلام العظيم إلى امتلاك الكفاءة الإدارية والتنظيمية** .. ففي جعبتهم طاقات جيدة وعزيزة .. ولكن معظمها معطل ولا يستفاد منه .. ومن أسباب عدم الاستفادة من الطاقات كما ينبغي (**ضعفُ الإمكانات الإدارية والتنظيمية كمّاً ونوعاً**) . وهذا الثغر من مقاتل العمل الإسلاميّ اليوم .. ويجب أن يؤهل لهذه المهمة الخطيرة من يقوم بها قبل فوات الأوان .

٦- **التحرر المالي من أوجب الواجبات** .. ولا يخفى على عامل أثر المال في قوة الأعمال أو ضعفها.. وقد أدركت جهات الاحتواء والضغط حاجة الأعمال الإسلاميّة إلى المال فتوسلت بالمساعدات للنيل من حرية من يتعامل معهم من العاملين .. وقد حققوا بما يدفعونه من فتات أموالهم كثيراً مما يريدون!!.. لذلك فإن من أوجب الواجبات أن يتذكر العاملون (الجهاد المالي) وأن يقيموا أعمالهم ضمن إمكاناتهم الخاصة ، وأن يتذكروا النصوص الواردة في الإنفاق ، وأذكر بقول الله عزَّ وجلّ : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۞ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ** ﴾ [الصف: ١٠-١١] .

وبعد :

فإن هذه الواجبات ، وغيرها مما لم نذكره ، كفيلة -بإذن الله تعالى- بأن تعيد صياغة أمتنا من جديد .. وحين تعاد الصياغة سيتعلم كثير من الجاهلين ، وسيرجع إلى الحق كثير ممن خدعهم بريق الحضارة الغربية

الزائف ، وسيشعر المسلمون بأمانة حمل رسالة الخير إلى الناس أجمعين ، يطرقون أبوابهم قائلين : (**إنّ الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة**) .

وإنه ليوم قريب بإذن الله تعالى .. فيا فوز من صدق العهد مع الله عزَّ وجلّ .. وسار بعلم على أثر الحبيب المصطفى ﷺ .

حاجة الدعاة إلى منهج النبوة

يثور جدل عريض في الساحة الإسلاميّة حول طريقة التعامل الشرعية مع الأوضاع السياسية والاجتماعية القائمة في العالم الإسلاميّ ، وهي أوضاع شاذة ومعقدة جداً ، ولا بدّ حيالها من أمرين :

الأول : تحديد موقف من هذه الأوضاع ، وهذا يشكل ضرورة فكرية .

الثاني : اختيار منهج العمل والتحرك من أجل تحقيق أهداف الإسلام في هذا الواقع ، وهذا يشكل واجباً شرعياً ، لأن منهج العمل الملتزم بقواعد الإسلام وآدابه هو الذي يقودنا إلى تحرير إنساننا وأرضنا من أوهاق القوى المفسدة الباغية في الأرض .. والخطأ في تحديد هذا المنهج ينأى عن الأهداف بحسب جسامة الخطأ .

والمتحاورون في ساحة العمل الإسلاميّ يختلفون في الإجابة على سؤال كبير وخطير ، وهو :

هل نحن ملزمون في مواجهة الطاغوت الداخلي بـ ﴿ ... **كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ** ... ﴾ [النساء: ٧٧] فنصبر على صنوف الأذى التي يصبها الظالمون المستبدون على الدعاة إلى الله عزَّ وجلّ .. وهذا يعني أننا في مرحلة مكية ؟.

أم أننا في مرحلة ﴿ **أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ** ﴾ [الحج: ٣٩] فنعمل على توفير (القوة) ومقاومة محاولات القضاء على العمل الإسلاميّ .. وهي محاولات جادة ، ويسهر على تنفيذ فصولها الذين استولوا على مقاليد الحكم في بلاد المسلمين .. وهذا يعني أننا في مرحلة مدنية ؟

ويحاول كل فريق أن يدلل على صواب ما ذهب إليه من واقع التجربة أيضاً ؛ فالذين يرون أننا في ظروف مرحلة مكية بالنسبة للدعوة يقولون : إنّ التجارب التي وقعت في أكثر من قطر إسلامي تقيم الدليل القاطع على أن اللجوء إلى استعمال القوة من أجل تغيير النظم السياسية والاجتماعية والاقتصادية القائمة .. لم يسفر عن نجاح يذكر .. بل كانت نتائج هذا الاختيار بالغة الخطورة .. لقد ضاعت جهود كريمة عزيزة في وقت لم تدع ضرورة إلى تقديمها .. وارتفع حجم المعاناة إلى درجة لم تتهيأ الساحة الإسلاميّة لتحملها بعد .. وما كان

ينبغي أن يحملها الدعاة إلى الله ، ومن حولهم ، في هذه المرحلة المبكرة من محاولة إعادة البناء ورد المياه إلى مجاريها في دار الإسلام .. وخلَّفت هذه التجارب الفجة مآسٍ أخلاقية واجتماعية ليس من السهل تجاوزها ؛ فلقد تسرب اليأس والشعور بالإحباط إلى قلوب كثيرة .. فأصيبت همم وإرادات في مقتل .. وعلى الرغم من أن كثيرين قد حافظوا على سلوكهم الإسلاميّ الفردي ، إلاّ أنهم فقدوا الرغبة في مواصلة الدعوة لدين الله عزَّ وجلّ .. وخاصة من خلال عمل جماعي منظم .

ثم إنّ الذين مالوا إلى هذا الرأي –البعد عن الصدام مع الأنظمة الحاكمة– تعددت اجتهاداتهم في اختيار السبيل الأمثل للتعامل مع الواقع الرسمي الموجود في دنيا المسلمين :

▪ فمنهم من رأى أن حكام البلاد الإسلاميّة جاهلون مستبدون ، سفاحون ، وأن الحكمة تفرض أن نبتعد عن معارضتهم وإثارتهم . وقامت على هذا الرأي جماعات متعددة ، كان شعارها وواقعها (البعد عن السياسة) مع إيمانهم أن الإسلام نظام حياة شامل وكامل .. وهذه الجماعات بنت ما اختارته على اقتناع بضرورة الإصلاح من الجذور .. ثم اختلفوا في نقطة البدء .. وأبرز هذه الاتجاهات :

▪ جماعة اعتقدت أن أزمة المسلمين روحية خلقية .. فجندت طاقتها في الدعوة إلى إقامة الشعائر وإصلاح الأخلاق ، فكونت بذلك حركة صوفية في ثوب جديد .

▪ فئة رأت أن أزمة المسلمين أزمة عقيدة .. فدعت إلى إصلاح العقيدة .. واعتمدت في معرفة العقيدة على كتب أجيال سابقة .. وكان من نتائج الرجوع إلى كتب قرون خلت : استدعاء مشكلات غابرة كانت تحتل الصدارة في حياة تلك الأجيال ، ثم تنحت إلى موقع ثانوي بالنسبة إلى مشكلات جديدة ، وطرحها من جديد على أنها مشكلة المشاكل في عصرنا .

▪ جماعة ذهبت إلى أن الإصلاح إنما يكون بالتغلغل في المؤسسات الإسلاميّة الرسمية أو شبه الرسمية .

▪ ومن الذين مالوا إلى عدم الصدام مع الحكام المستبدين فريق أصر على أن الاهتمام بشؤون المسلمين العامة ضرورة مرحلية .. حرصاً على شمولية الإسلام ، وبما أن الظروف السياسية ، المحلية والدولية ، قاسية وتسير في اتجاه معاكس لما نريد ، فلا يصح أن نذهب بعيداً في إثارة هذه القوى ، وعلى كل حال فما يزال في بعض الأقطار الإسلاميّة (هامش ديمقراطي) يتسع في أقطار ويضيق في أخرى .. هذا الهامش الديمقراطي يسمح بنوع من الحركة .. ويجب أن نستفيد مما يضعه في أيدينا من إمكانات العمل .

ويعترف هذا الفريق أن الأنظمة المستبدة التي تسمح بهذا الهامش الديمقراطي ستستفيد من دخول الإسلاميين إلى ساحة المعترك السياسي عبر القنوات الرسمية ، ولولا أنها مضطرة إلى ذلك لما قبلت بوجود فكر يتحرك مع علمها أنه يناقضها من الجذور . ويقولون : ولكن لماذا لا نستفيد من هذا الهامش الديمقراطي ونحاول في الوقت ذاته تفويت ما أمكن من فرص استفادة الحكام من هذه المشاركة .. ؟ ، فالحكام رجال ونحن رجال .. والمعارك السياسية –كغيرها– سجال يوم لك ويوم عليك ..

▪ ومن هذا الرأي اتجاه يرى أن معظم الحكام هم ظلمة فسقة ، ويتفاوتون في البعد عن تعاليم الإسلام .. ومعظمهم يسمح بإقامة الشعائر كالصلاة والأذان والصيام ونحو ذلك . ويحصر هذا الفريق جل عملهم في التوعية العامة بمبادئ الإسلام وشرائعه ، ويبتعدون عن نقد ممارسات الحكام .. إلاّ إذا أمنوا مكرهم وشرهم .. كأن يتخذوا موقفاً من نظام حكم في بلد إسلامي ليس بينهم وبينه رابطة سياسية -حسب التقسيمات المعاصرة- أو رابطة المذهب أو نحو ذلك ! .

▪ وينتمي إلى هذا الرأي فريق مال إلى (التفاهم) مع الحكام ، والدخول معهم في تعاون ، معتقداً أن التعاون يوفر شروطاً أفضل للتحرك ، ويُطمئن الحكام ، لأنهم يرون في تعاون الإسلاميين معهم دليلاً على عدم رغبتهم في السلطة ، ولربما تأثر الحاكم بالفكر الإسلاميّ وسار في طريق تبني الإسلام منهج حياة .

ويقر هؤلاء أن الحاكم الظالم لن يقبل بوجودهم معه إلاّ حين يشعر بحاجته إليهم .. وأنه سيحاول استغلال مشاركة الإسلاميين في الحكم . ولكنهم يسوغون ما ذهبوا إليه فيقولون : إنّ المنطق يفرض علينا أن نقدر الربح كما نقدر الخسارة .. فإذا رجح جانب الربح تحملنا ما ينتج من سلبيات المشاركة في الحكم لأن النتيجة ستكون في صالح العمل الإسلاميّ .

▪ ويدخل في أصحاب هذا الرأي أفراد ومجموعات صغيرة خاضوا تجارب عمل إسلامي ، فأصيبوا بمرارة وأسى فهجروا العمل الجماعي ، ورأوا أن واجبهم ينحصر في (نقد) الساحة الإسلاميّة ، ونأوا عن الخوض في أمور تغضب الحاكمين . وحجة هؤلاء أن مشكلات العمل الإسلاميّ ترجع إلى علل تفتك بالعاملين أنفسهم ، ويجب أن نظهر العيوب حتى تجتنب الأجيال الجديدة عثرات من سبقهم ، ولعل بعض العاملين يثوب إلى صواب ويصلح شأنه! .

هذا عرض مجمل لأبرز الاتجاهات الإسلاميّة التي تبنت البعد عن الصدام مع أنظمة الحكم في العالم الإسلاميّ .. ويقف في مواجهة أصحاب هذا الرأي فريق يرى أن سلوك سبيل الدعوة والتربية فقط لا يؤدي إلى نتائج يحسن السكوت عليها ، وأنه لا بدّ من (حمل السلاح) لمواجهة الهجمة الشرسة المسلحة التي تشنها أنظمة الحكم على العاملين للإسلام .. إذا رفض هؤلاء السير وفق مراد الحاكمين ..

ويستند أصحاب هذا الرأي في تأسيس ما ذهبوا إليه إلى أن الحكام الحاليين مغتصبون للحكم ، ويحكمون بغير ما أنزل الله تعالى ، ويفرضون مذاهب الكفر والضلال على الناس بأساليب متنوعة ، ويحاربون دين الله عزَّ وجلَّ ، وذلك بإقصائه من التشريع لواقع الحياة .. وبالنيل من الداعين إليه ..

ويقولون : وهؤلاء المغتصبون لمقاليد الأمور في العالم الإسلاميّ لا يفقهون إلاّ لغة القهر والقتل ، يخاطبون بهما كل من يُظهر رفضه لحكمه ويدعو إلى رد الأمور إلى نصابها في البلاد الإسلاميّة . ويقولون أيضاً : وإذا رجعنا إلى نصوص القرآن والسنة لوجدنا أنها تأمر المسلمين بالدعوة إلى الله عزَّ وجلّ .. وبالأمر بالمعروف

والنهي عن المنكر .. وتؤكد على ضرورة العمل على تغيير المنكر .. وإن من وسائل نصر الدعوة وتغيير المنكر (الجهاد) بالمال والنفس ، ويجب أن نعمل على إحياء (الروح الجهادية) كي يتخلص المسلمون من الهزيمة النفسية تجاه الحاكمين ، ومن وراءهم ، والتي يعبرون عنها بالخضوع والخنوع والسير في الطريق التي يحدد معالمها الضالون! .

ولا ينسى هذا الفريق التدليل على ما يراه من الواقع أيضاً ، إنهم يقولون : ما الذي جنته الحركة الإسلاميّة من اعتمادها على عدم الصدام مع الحكام الظالمين؟! ، إنّ هؤلاء الطغاة يرصدون تحركات الإسلاميّين .. وكلما رأوا ثمار عمل تربوي هجموا عليها بأنواع التهم والأذى والمطاردة والتصفية .. أليس من الخير أن نري هؤلاء البغاة (قوة) فنربح مرتين :

الأولى : نربي أبناء الحركة الإسلاميّة على الشجاعة ، والصبر ، والتضحية ، وهذه المعاني تؤهلهم لقيادة سفينة الأمة في قابل الأيام .

الثانية : نرغم الخصم على مراجعة حساباته ، فيحترم رجال وشباب الحركة الإسلاميّة قسراً عنه ، لأنه يعلم أن مهاجمتهم ستكلفه كثيرا .

هذه أبرز المعاني التي يمكن أن تذكر عن أصحاب استخدام القوة في مواجهة الطاغوت الداخلي .

والذي يظهر لنا أن الساحة الإسلاميّة بأمس الحاجة إلى الحوار حول (منهج النبوة) في العمل لدين الله عزَّ وجلّ .. بقصد إسقاط (ضوابط المنهج الشرعية الثابتة) على (الواقع بثوابته ومتغيراته) واستنباط (منهج العمل في ظروف أقطارنا ضمن شروط العصر الذي نعيش فيه) .

ونرى أن من حق الساحة الإسلاميّة علينا أن نطرح على العاملين فيها (ملامح) ما نرى أنه (منهج النبوة في التغيير) في هذه المرحلة من حياة أمتنا ، وهذه الملامح نوجزها في ثلاث مراحل كبرى هي :

أولاً : **مرحلة التكوين والبناء** ، وتشمل بصورة أساسية :

- تكوين الفرد ، وبناء الجماعة (التيار الراشد) وسيلة التغيير الرئيسية .
- وتكوين التيار الجماهيري الذي يؤمن بالإسلام كما أنزله الله عزَّ وجلَّ ، ويقبل به منهج حياة ، ويستعد لألوان من التضحية من أجل تحقيق ذلك .

وهذه المرحلة هي أطول المراحل ، وأكثرها خطورة ، والتهاون فيها يلقي بظلاله على مستقبل العمل ، ويبتعد بالعاملين عن تحقيق الأهداف . وهذه المرحلة تشمل ساحات أخرى غير الفرد ، والجماعة القيادية ، والتيار الجماهيري ، ليس هنا محل تفصيل الكلام فيها .

ثانياً : **مرحلة بروز الجماعة** : وهذا يكون حين تتجاوز الجماعة مرحلة التكوين والبناء .. وتفرض وجودها في المجتمع بما تملك من إمكانات نوعية وعددية .. بحيث يصعب على القوى المناوئة أن توقع بها الأذى

الكبير .. وهذا يتم حين تكون جماهير الأمة متجاوبة مع أهداف الإسلام في عالمها وعصرها .. ولهذه المرحلة وسائلها المناسبة ، وحين تستوفي الجماعة شروط الحضور الاجتماعي القوي ستصل بالضرورة إلى المرحلة الثالثة .

ثالثاً : مرحلة التغيير : وهي مرحلة لا بد منها إذا وصل العمل الإسلاميّ إلى مرحلة نضج مناسبة . فسنن الاجتماع تقضي بحدوث مرحلة الحسم مع القوى التي لا تقبل بالإسلام منهج حياة .. ومرحلة الحسم قد تضع أمام الجماعة القيادية ، ومن ورائها التيار الجماهيري ، عدداً من وسائل الحسم التي تعيد السلطة إلى الأمة .. وهذه الوسائل قد تكون القوة (السياسية) أو (الجماهيرية) أو .. أو ..

وهذه المراحل التي أتينا على ذكرها يجب أن نتعامل معها بواقعية وإيجابية ، وأن يحذر العاملون المخلصون أموراً تؤثر على جهادهم وتنأى بهم عن تحقيق أهداف الإسلام الكبرى ، ونخص بالذكر الآتي :

١- يجب أن يحذر الداعون إلى الله تعالى من (التنظير الفوقي المنفصل عن رؤية أبعاد الواقع .. والعاجز عن تحديد طريقة شرعية عملية للتحرك الإيجابي في شروط المكان والزمان) فهذا النوع من التنظير يوجد (مثالية) في عقول رجال وشباب الحركة الإسلاميّة .. ولكن حين يدخل هؤلاء التجربة يصدمهم الواقع وتحدث عندهم ردود فعل ليس حميدة .

إنّ من أهم واجبات التنظير (إقامة جسر بين الواقع المراد تغييره وبين الأهداف التي يراد تحقيقها) ، وهذا يعني أن على الدعاة إلى الله تعالى أن يستفيدوا من جميع ما يقدمه (إنسان المرحلة) وتتيحه (الظروف المتغيرة) ، وأن يطوروا مخططاتهم باستمرار من أجل التغلب على عقبات الإنسان وعقابيل الظروف .

٢- يجب الحذر من تحميل (العامل الداخلي) في الحركات الإسلاميّة قسطاً من المسؤولية عن أوضاع المسلمين أكبر مما يجب أن يحمله .. في الوقت الذي يهمش فيه (العامل الخارجي) .

إننا نؤكد بقوة على ضرورة توفير شروط طبيعية لممارسة عملية (التقويم الذاتي) أو (النقد الذاتي) في الحركة الإسلاميّة . والتقويم النافع هو الذي يتمكن من رؤية جميع العناصر التي يجب أن تدخل في عملية التقويم .. ويعطي كل عنصر حجمه الحقيقي . لذلك نحذر من الاستغراق في الحديث عن (العامل الداخلي) لأن هذا الصنيع يقود إلى تضخيم العامل الداخلي ، وإلى التهوين من أثر العامل الخارجي .. ولا يخفى على عامل أن هناك قوى عاتية تملك إمكانات جبارة ، ترصد العمل الإسلاميّ .. وتعمل بقاعدة (الوقاية خير من العلاج) .

نعم ، لقد أتى على الإسلاميّين حين من الدهر كانوا يُحمّلون العامل الخارجي مسؤولية عدم الوصول إلى تحقيق الأهداف .. فلما كثرت التجارب المرّة .. نهض في المسلمين من يدعو إلى رؤية العامل الداخلي .. وهذه الدعوة صحيحة وضرورية .. إلاّ أن كثرة الحديث عن العوامل الداخلية ، والكتابة فيها بمرارة ، أنشأ في نفوس فئة من الإسلاميّين شعوراً بطفولة معظم العاملين .. وهذا أوجد أوضاعاً نفسية خاصة ، أثمرت اهتزاز الثقة داخل قطاعات في الحركة الإسلاميّة المعاصرة .

٣- ويجب أن يحذر دعاة الإسلام من الوقوع في براثن مخططات تطويع العمل الإسلاميّ .. فالظالمون وأعداء الإسلام يتوسلون للوصول إلى هذا الهدف بما يخفى على كثير من الناس .. ومن جملة ذلك : فسح المجال أمام الإسلاميّين للمشاركة في نشاط مؤسسات رسمية أو شبه رسمية .. فعن طريق هذه المؤسسات تسعى أنظمة الحكم إلى الإمساك ببعض خيوط الساحة الإسلاميّة ، وهذه المؤسسات تقدم بعض الخدمات التي تقنع بعض النشيطين من أهل العلم والدعاة بفائدة الدخول في هذه المؤسسات .. وحين يدخل فيها من يرضى بذلك يجد نفسه أمام شروط ، غير مرئية ولا مكتوبة ، تدفعه إلى مراعاة هذا النظام أو ذاك! .

وقد تكون محاولات التطويع بترك التيار الإسلاميّ يقبل بالنشاط العام من خلال القنوات السياسية التي يسمح بها نظام الحكم الاستبدادي .. سواء كانت المشاركة بعنوان إسلامي ، فردي أو جماعي ، أم كانت متسترة بواجهة غير إسلامية .

٤- وقد آن الأوان لأن تحذر الساحة الإسلاميّة من محاولات جرّ بعض العاملين فيها إلى ساحات الفتك بهم تمهيداً لتوجيه ضربات إلى عاملين آخرين . فإن بعض الأنظمة تعمد إلى إثارة ساحة إسلامية بالسجن والأذى والإهانة النفسية وربما بالقتل . وهي تريد بذلك دفع العاملين إلى الخروج عن (السننية في العمل لدين الله عزَّ وجلَّ) ، فإذا استجابت فئة مسلمة لعوامل الإثارة .. صدرت منها ردود أفعال غير واعية .. فتستغلها الأنظمة الحاكمة في إقناع مؤيديها والمستفيدين منها بضرورة الضرب بقوة على أيدي (الإرهابيين) أو (المتطرفين) ، كما تستغلها في إقناع عامة الناس بأن عنف السلطة إنما هو ردّ فعل على عنف المغالين ، وتحقق الأنظمة كذلك هدفاً ثالثاً حين يختلف الإسلاميون حول طريقة الرد على استفزاز السلطة الحاكمة .. وتأخذ هذه الخلافات صوراً حادة حين يعتبر كل فريق أن اختياره هو الصحيح والأصح .. وأن ما سواه باطل! .

٥- ونُذكِّر بوجوب الحذر من (تحطيم النفسية الجهادية لدى الفرد المسلم أو الجماعة المسلمة) ، والنفسية الجهادية لا تنحصر باستعداد الفرد لحمل السلاح عند وجوب ذلك عليه ، وإنما نعني بها : (ارتباط المسلم بالإسلام وبالدعوة إليه ارتباط مصير يدفعه إلى فهم أفضل باستمرار .. للإسلام وللواقع .. وعمل أكمل باستمرار فلا يقف عند حد .. ويقدم كل ما يملك وفق رؤية شرعية ووسيلة مشروعة من أجل قضية الإسلام في مكانه وزمانه .. فهو يتحرك في المكان مستحضراً واجبات الزمان) .

والقوى المعادية لدين الله عزَّ وجلّ .. داخل بلاد المسلمين وخارجها .. تسعى سعياً حثيثاً لاجتثاث (روح الجهاد) الذي نعبر عنه أحياناً بـ(الانتماء الواعي لدين الله عزَّ وجلَّ) ، وقوى الشر تملك من وسائل وأساليب التخدير والتأثير والتحوير الشيء الكثير .. ونضرب مثلاً على ذلك نغمة (التطرف) فكل من دعا إلى الله على بصيرة ؛ فقدم الإسلام كما أنزله تعالى (نظام حياة كامل) ، يرمى بالتطرف ونحو ذلك .. وتقوم وسائل الإعلام وغيرها بتوزيع هذه النغمة وبثها وتكرارها .. وقد يرافقها مضايقات مدروسة .. وبتأثير الدعاية وغيرها يتسرب إلى بعض العاملين الشعور بأنهم متطرفون .. ويفكر هؤلاء في طريقة تنفي عنهم هذا الاتهام .. فتراهم

يتركون أعمالاً مشروعة يراها الظالمون (تطرفاً) .. وبذلك يبدأ خط الانحراف في حياة هؤلاء الدعاة وينال هذا المسلك من نفسيتهم الجهادية التغييرية ، لأنهم سيحرصون على البعد عن كل ما يظهرهم في أعين المعادين (متطرفين)! .

نخلص من هذا العرض الموجز لواقع الساحة الإسلاميّة إلى ضرورة التعرف إلى (منهج النبوة في الدعوة إلى الله عزَّ وجلَّ) وجمع القلوب والجهود عليه .. وهذا هو الذي يدفعنا إلى فهم أعمق للإسلام ، وإدراك أوسع لواقع المسلمين في ظروف هذا العصر ، ومعرفة أدق بقوى الشر والطغيان الكبيرة والصغيرة .. وهذا بدوره ينير الطريق أمام الدعاة الصادقين والشباب الظامئ إلى القيام بواجبه الإسلاميّ كما يحب الله عزَّ وجلّ .. وبذلك يكون التغيير المنشود بإذن الله تعالى .

﴿ **قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ** ﴾ [يوسف: ١٠٨]

﴿ **وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** ﴾ [الأنعام: ١٥٣]

﴿ **إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ** ﴾ [الصف: ٤]

﴿ ... **وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ** ﴾ [الحج: ٤٠] .

السبيل إلى اجتماع الجهود

يخوض الشباب المسلم في كل مكان من الأرض غمار معركة فكرية حركية ضارية ، سببها اختلاف الساحة الإسلاميّة في مسألة تحديد التحديات التي تواجه المسلمين في هذا العصر ، وفي اختيار طريقة التحرك لمواجهتها .

فالشباب ينظرون إلى العالم الإسلاميّ .. فيرون :

١- **أنظمة حكم طاغوتية تحكم بغير ما أنزل الله تعالى** .. وتزين باطلها في أعين الناس ، وتدعوهم إلى قبوله بشتى وسائل الترهيب والترغيب .. والويل كل الويل لمن رفض السبل التي تسير فيها تلك الأنظمة!

٢- **وشعوباً غالبيتها لا تفقه الإسلام الموحى به من عند الله عزَّ وجلّ** .. ولا تدرك -لفرط جهلها وغفلتها- ما يراد بها ولها ، فهي كالقطيع يسير خلف الجزار إلى المسلخ كما يسير خلف من يقوده إلى المرعى دون تمييز!

أما القلة التي تدرك فساد الأوضاع القائمة -وفي مقدمتها فساد الحكم وأجهزته- فإن معظم هؤلاء المدركين يسلكون في حياتهم طريقة عبر عنها الشيخ يوسف القرضاوي بقوله :

قالوا : السعادة في السكون وفي الخمول وفي الخمود
في العيش بين الأهل لا عيش المهاجر والطريد
في المشـــي خلف الركب في دعة وفي خطو وئيـــد
في أن تقول كما يقال فلا اعتراض ولا ردود
في أن تســـير مع القطيـــع وأن تقـــاد ولا تقـــود
في أن تصيح لكل وال : عاش عهدكم المجيـــد

٣- **ومخططات رهيبة ينفذها أعداء الإسلام والمسلمين** .. جهاراً نهارا .. ويسعون من خلالها إلى فرض سيطرتهم على العقول والقلوب والاجتماع والسياسة والاقتصاد والأرض .. وقد حققوا كثيراً من مآربهم .

وينظر الشباب المسلم نظرة أخرى إلى الساحة الإسلاميّة .. موطن الأمل ومعقد الرجاء .. فتسري الحسرة في فؤاده وكيانه لما يراه من فرقة وتناحر .. إنه ينظر فيرى :

١- فريقاً من العاملين للإسلام اختار لمواجهة التحديات والسعي إلى تحقيق أهداف الإسلام .. الدخول في مشاركة نظام حاكم في الحكم تحت شعار (**المصلحة الوطنية**) .. ونحو ذلك .

ويرى هذا الفريق أن طريقته هذه تجعل النظام مطمئناً من جانب (الإسلاميّين) إذ يبرهنون له أنهم حملة رسالة لا طلاب سلطة .. وهذا كسب كبير يؤدي إلى فسح المجال أمام الحركة الإسلاميّة فتصل بالدعوة إلى قطاع كبير من الناس .. وتكسب الأنصار .. وتجعل ضرب الحركة من قبل النظام أمراً عسيرا .

وهؤلاء يرون صنيعهم فتحاً في التجارب المعاصرة .. وخطوة متقدمة تجاوزت الأسلوب التقليدي في العمل الإسلاميّ!

٢- وفريقاً آخر عمد إلى تصنيف الخصوم .. وبات مقتنعاً بمسالمة أنظمة حكم وأحزاب (**اليمين**) ضد أنظمة حكم وأحزاب (**اليسار**) بحجة ضرورة الاستفادة من التناقضات الموجودة بين القوى المتصارعة ، وبحجة أنه ليس من الحكمة أن نستعدي على الحركة الإسلاميّة جميع الاتجاهات المخالفة لها .. وبحجة أن (**اليمين**) أقل شراً من (**اليسار**) !

ويدرك هؤلاء أن (المسالمة) تعني على الأقل السكوت عن باطل الجانب المهادن .. وربما وصلوا إلى التعاون معه في بعض المجالات تعبيراً عن حسن النية!

٣- وفريقاً ثالثاً دفعه شعوره بضراوة المعركة مع الطاغوت إلى عقد التحالفات مع قوى غير إسلامية لتحقيق أهداف مشتركة .. ويعتبر هؤلاء عملهم نصراً كبيراً للإسلام .. وتراهم يحشدون الحوادث من السيرة وتاريخ المسلمين لتسويغ عملهم!

٤- وفريقاً رابعاً رأى أن (التربية) لم تعد لغة معاصرة ، لأنها لم تصمد في مواجهة التحديات المفروضة .. ورأى هؤلاء أن لغة (السلاح) هي اللغة الوحيدة التي يفهمها الخصوم في هذا العصر .. وهي كفيلة أيضاً بتفجير طاقات المسلمين ودفعهم إلى القيام بواجبهم .

حمل هؤلاء (السلاح) -الذي قد يكون وسيلة في مرحلة من مراحل التغيير- وخاضوا تجارب مريرة .. انعكست آثارها عليهم وعلى جميع العاملين!

٥- وفريقاً خامساً لم ير في حياة المسلمين قضية أكبر من (البدعة) وقصر هؤلاء معنى البدعة -عملياً- على البدع القديمة و لم يلتفتوا إلى الضلالات الجديدة ، التي عاثت في عقول وقلوب وحياة المسلمين فسادا .. وهذه الضلالات لا تتمثل في قبر اتخذه بعض الناس للبركة -بزعمهم- ونحو ذلك .. وإنما تتمثل بالدعوات الوافدة كالعلمانية والاشتراكية والرأسمالية ، وهي أشد فتكاً من البدع القديمة .

٦- وفريقاً سادساً قصر جلّ اهتمامه على الساحة السياسية ، لاعتقاده أن العمل السياسي من خلال الأقنية المسموح بها .. كفيل بحلّ معضلات المسلمين!

٧- وفريقاً سابعاً أدرك أن المسالك آنفة الذكر .. فيها صواب ولكن في غير إبّانه .. وفيها خطأ واضح .. وأيقن أن للإسلام منهجه الخاص في عملية التغيير وفي مواجهة التحديات ، ويجب على العاملين أن يحدّدوه وأن يلتزموا به .. وأن يستعدوا لدفع تكاليف كل مرحلة من مراحله .. ورأى هذا الفريق أنه لا ينبغي أن يدفعنا (الاستعجال) و(ضغط الظروف) إلى حرق المراحل .. فحرق المراحل : يضيع الجهود ، ويبعد عن الأهداف ، ويميع دعوة الله عزَّ وجلَّ في أعين الناس ، ويفرز أمراضاً فتاكة في القلوب والسلوك .

ولا ريب في أن أصالة هذا الرأي تجمع عليه عداوة الخصوم وكيد المستغلين .. يساعدهم في التمكين من النيل منه ومحاصرته (الجهل) القاتل لدى عامة المسلمين .. وانتشار داء (الحزبية) في صفوف العاملين .

وعلى حملة هذا الرأي -وقد كوتهم نار (التجارب الفجة) و(النظرة الجزئية إلى الإسلام وإلى الواقع)- أن يتحملوا تبعة أمانة بيان سبيل الخلاص على أساس متين من العلم بالإسلام كما أنزله الله عزَّ وجلّ .. وإدراك عميق لواقع المسلمين في ظروف المرحلة التي يمر بها العالم .. ثم عليهم أن يسلكوا السبيل ، وأن يصبروا على مراحله .. مع الحرص كل الحرص على الاستقامة عليه في خضم الظروف القاسية المتقلبة التي تضغط على

كثيرين ، فيندفعون بردود الفعل إلى تصرفات غير مدروسة ، فيتورطون ، ثم يبحثون عن مسوغات لتصرفاتهم .. وهذا مسلك خطير يؤدي إلى أخطاء مركبة يصعب المخرج منها .. وهنا نرفع الصوت عالياً **داعين من أعماق قلوبنا العاملين في الحقل الإسلاميّ إلى توفير الصواب مع الإخلاص ، وألا يدخلوا في اجتهاد بغير أهلية** .. فمن اجتهد بغير علم أصيبت مقاتله .. فهلك وهلك من معه .. وإنه ليؤلمنا كثرة (الفقهاء من غير فقه) في ساحة العمل الإسلاميّ .. إنّ هؤلاء يمثلون أحد الأسباب الأساسية في التنازع المسيطر في ربوع الساحة الإسلاميّة .. وإنّ معالجة هذا الداء تسفر عن وحدة أو تقارب التصورات .. وهذه كفيلة بتوفير أسس متينة لتقارب العاملين المخلصين وتلاقي الجهود والقلوب من أجل القيام بالواجب .. وما لم يتوفر الاتفاق على فهم الواقع وكيفية التحرك والعمل في ظروف الأوضاع الراهنة .. فإن كل حديث عن وحدة العمل الإسلاميّ يبقى كلمات لا رصيد لها في واقع تعدد التصورات وتباينها .

وفروا أسباب النجاح!!

التقيت بأخ عزيز كريم باعدت بيني وبينه صروف وظروف مدة تربو على عشرين عاما .. !! وما كاد يفرغ من سلامه عليّ حتى فاجأني بسؤال :

يا أخي الكريم .. لماذا لا ندرس نحن الإسلاميّين التجارب التي نمر بها ؟! ولِمَ لا نقوّم المراحل التي عشناها؟!

وجنحت في جوابي إلى أن الساحة الإسلاميّة ليست مستعدة بعدُ للحوار والنقد والتقويم .. لأنها تفسر ذلك غمزاً وتجريحاً وجدلا .. وخاصة إذا نوقشت أعمالها ومواقفها على مسمع من الناس! .

فلما أدرك وجهة جوابي انهال عليّ بسؤال يؤرقه :

إذا كان الأمر كذلك .. فأين كانت القيادات الإسلاميّة الواعية -كما صُورت لنا- حين ظهرت إرهاصات الكوارث والنكبات ؟! .. لِمَ لَمْ يقف هؤلاء مبينين السبيل الأقوم في مواجهة الحوادث ؟!

وما كدت أفصح عن رأيي في أننا نخطئ في تقدير مواهب الرجال .. إذ لا يشترط أن يكون الفقيه المتعمق في الأصول والفروع .. قائداً لجنود الدعوة في ظروف عصرنا ، ولا الخطيب المفوه .. سياسياً محنكاً ، ولا المربي الناجح .. مفكراً منظراً .. حتى هجم عليّ بسؤال مرّ :

ولم يتقدم إلى قيادة سفينة الدعوة .. العاجزون .. عن القيام بدور الربان ؟ . ألا يشبه هؤلاء (الرؤوس الجهال) الذين يجيبون عن المسائل بغير علم فيَضلون ويُضلون ؟!

وذهبت في الجواب إلى تسويغ الأخطاء التي وقعت وتقع الآن في الساحة الإسلاميّة بمستوى (إنسان المرحلة) سواء كان في قيادة العمل أم في قاعدته .. مؤكداً أن الضوابط لا تأتي من قمة العمل الجماعي فحسب .. وإنما تصدر عن القاعدة .. وذلك حين يتمتع الأفراد بالعلم والوعي والشجاعة والشعور بالمسؤولية .

قاطعني عند هذا الحد سائلا :

فهل تستطيع أن تفسر لي تخبط ناس قياديين بين الاختيارات المتناقضة عند التعامل مع الأوضاع السياسية القائمة في بلادنا الإسلاميّة ؟! . فتراهم –مثلاً– قبل أيام يرون حمل السلاح في عملية التغيير جريمة لا تغتفر .. ويذكرون أسباباً كثيرة تلزمهم شرعاً بهذا الاختيار ، ثم هم أنفسهم يتبنون حمل السلاح ، وينشطون في هذا الاتجاه ، ويحرضون الناس على ذلك ، مع أن الواقع لم يتغير . ثم هم أنفسهم بعد حين ينددون بحمل السلاح!!.

قلت : المشكلة تكمن في أننا نعمل دون اتفاق مسبق واضح على (منهج العمل) الذي يجب أن يتربى عليه الكبير والصغير .. وأن يلتزم به الجميع .. بحيث إذا فاجأتنا حوادث .. لا تضطرب الآراء ولا تتعدد المواقف إلى درجة (اختلاف التضاد) بل تبقى في حدود (اختلاف التنوع) .

وهنا سأل : **وما يعني عندك (منهج العمل) ؟**

أجبت : أعني بذلك (طريقة التعامل مع الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية وغيرها القائمة اليوم في بلادنا بقصد تغييرها وإقامة الحياة الإسلاميّة والحكم الإسلاميّ ، وحمل راية الدعوة إلى الله من هذا الموقع) .. وهذا الأمر لا يمكن تحديده إلا إذا عرف دعاة الحق كيف تكوَّن هذا الواقع ، وما القوى التي تؤثر فيه تأثيراً أساسياً ، والقوى التي تحتل مكاناً ثانويا ؟ سواء كانت سياسية أم دينية أم اقتصادية ، أم فكرية .. إلخ ، وما الخصوصيات التي يتميز بها كل قطر ؟ ثم ما السبيل الشرعي إلى تغيير هذا الواقع ؟

وهذه المسائل وغيرها ، مما لم أذكره ، يجب أن تقوم معرفتها على دراسات وليس على انطباعات .

قال أخي بارتياح : جزاك الله خيرا .. فأنت متفق معي في وجوب اعتماد (السننية) في العمل الإسلاميّ .. وأن الارتجال والاستعجال والفهم العاجز يقفون وراء مآسينا نحن معشر المسلمين .

وبعد : فقد نقلت هذا الحوار العفوي لأنه يعبر عن خيبات الأمل لدى كثير من الشباب ؛ بسبب التجارب غير الناضجة التي وقعت في أكثر من قطر في بلادنا الإسلاميّة .. ويطرح عدداً من القضايا التي ينبغي أن تظهر واضحة في حياة الجماعات والحركات الإسلاميّة ، التي تتبنى منهج تغيير الأوضاع الفاسدة التي أفسدت العباد وخربت البلاد .. وفي مقدمة هذه القضايا :

أولاً : ينبغي أن يقوم الجهد الإسلاميّ على الالتزام بـ(منهج عمل) يقوم على فقه عميق للنص الشرعي .. وعلى فهم دقيق للعالم والعصر .. تتحدد من خلالهما قواعد التعامل مع الواقع القائم .. وهذا المنهج ضروري لضبط العمل وتقويمه .

والذي يراقب الساحة الإسلاميّة من داخلها فإنه يدرك أن أكثر ما يفتك بالجهد الإسلاميّ ثلاثة أمور :

١- سيطرة (مزاجية القيادة) .. وغالباً ما تكون قيادة فردية .. على القرار والتوجهات ..

٢- اندفاع قواعد العمل الجماعي وراء تصرفات غير مدروسة وغير مسؤولة .. وخاصة وقت الأزمات التي تثور ؛ إما بتحريض من الخصوم ، أو بتصرفات طائشة من أناس يستبد بهم الحماس ، وكثيراً ما تضغط القاعدة بغلبائها على القيادة .. وإذا بهذه تترك ما تراه صواباً .. وتستجيب لصيحات الانفعال!!

٣- المغالاة بـ(العقلانية) التي تتحول إلى قيد يمنع من العمل بالواجب .. ويخنق الإقدام في حينه والتضحيات في وقتها .. إلخ .

فإذا قام العمل الجماعي على (منهج) وتربى عليه الأفراد ، فإن هذا يجنب العاملين كثيراً من العثرات .

ثانياً : ينبغي أن تختار قواعد العمل الجماعي لقيادتها (أناساً ربانيين) ، وبعدد مناسب .. يلتزمون بالمنهج مع قدرة على الاجتهاد في النوازل ..

ثالثاً : يجب أن تهتم الحركة الإسلاميّة بالتكوين الشرعي لأبنائها .. وهذا التكوين الشرعي هو الذي يزود صاحبه بالضوابط العلمية والأخلاقية .. ويحمله على التحلي بالوعي والشجاعة والشعور بالمسؤولية .. ومصطلح (التكوين الشرعي) كاد يفقد مدلوله عند كثيرين .. ألا وإن من جملة ما ننبه على ضرورة توفره في التكوين الشرعي للمسلم :

- التكوين الإيماني .
- والتكوين الأخلاقي .
- والتربية على إقامة الشعائر .
- وتكوين التعامل الإيجابي مع الحياة والأحياء .

رابعاً : ينبغي أن يتوفر في العمل الجماعي (لجان) أو (مؤسسات) تملك القدرة على التقويم وتصويب مسيرة العمل في الوقت المناسب .

وإن أملي كبير في أن يدرك الدعاة إلى الله عزَّ وجلَّ هذه المعاني وغيرها .. لأنهم في ليل أمتنا هم معقد الرجاء .. وعليهم أن يؤهلوا أنفسهم لقيادة خطاها إلى الحق .. وقيادة البشرية إلى الهدى .. وعسى أن نرى هذا واقعاً قريباً بإذن الله عزَّ وجلّ .

﴿ ... إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ [محمد: ٧] .

الواقعية في الدعوة إلى الله

الواقعية .. كلمة تتردد كثيراً على الألسنة في هذه الحقبة من تاريخ المسلمين .. والكلمات حين تتحول إلى مصطلحات يكون لها دلالات عميقة عند من يتحدث بها .. وهذه الدلالات تتأثر بمصادر متعددة يفرزها الإنسان والزمان والمكان .. ومصطلح (الواقعية) واحد من هذه المصطلحات التي أضحت تحمل عمقاً فكرياً وسلوكياً في عصرنا . وضرب الأمثلة يوضح لنا ذلك :

١- إنّ نظرة واعية إلى الأرض الإسلاميّة تضعنا أمام واجب تحرير ما احتل الأعداء منها .. والأراضي الضائعة كثيرة ، ولكن إذا تركنا الحديث عن الأراضي الإسلاميّة المغتصبة والمنسية من قبل المسلمين ، وأتينا إلى الكلام عن آلامنا الحية كقضية فلسطين لرأينا عجبا .. فعلى المستوى الرسمي تفوح رائحة الإحباط واليأس والاستسلام .. ولكن الحاكمين بأمرهم لا يعترفون بذلك ويعمدون إلى تفسير هزائمهم وخنوعهم واستسلامهم بـ(الواقعية) ، وباسم الواقعية يبثون في الأمة روح التخاذل والهزيمة والضياع !! .

وأصبحت (الواقعية) في قاموس هؤلاء تعني : القبول بضياع أرضنا ، والاعتراف بدولة يهود في فلسطيننا ، والركوع والسجود لأمريكا وإسرائيل وغيرهما من القوى المتحكمة اليوم في مصائرنا .. وهذا هو السقوط العقدي والحضاري !! .

٢- في بلادنا الإسلاميّة أنظمة حكم تستمد فكرها ونظمها ومناهجها من الفلسفات والأنظمة التي تتبناها دول تسيطر على الشعوب المستضعفة وتعبث بمقدراتها .. وهذه الفلسفات والمذاهب الفكرية غريبة عن المسلمين .

واستطاعت الأنظمة الحاكمة في العالم الإسلاميّ أن تقيم جميع مؤسسات الأمة على أسس غير إسلامية .. وملكت من وسائل البطش والفتك ما دفع كثيرين إلى السكوت عن بيان الحق وغض الطرف عن الظلم والباطل .

فإذا قام من يدعو إلى تصحيح الأوضاع الفاسدة وإعادة الأمور إلى نصابها ، وإلى الوقوف بصلابة وثبات أمام الفكر الدخيل .. فإن أصواتاً كثيرة وعالية تنبعث من صفوف المنتمين إلى هذا الدين ، ومن المؤسسات

الدينية ، تناشد الدعاة إلى التغيير بالهدوء وضبط النفس والبعد عن مواجهة الطاغوت .. ويقولون : لنكن واقعيين .. فالحكام ظلمة ونحن ضعفاء .. وهل تقابل العين مخرزاً ؟!

فالواقعية في عرف هؤلاء تعني : السكوت ، والسكون ، والبعد عن كل ما يثير الحاكم الظالم المستبد .. وهذه الواقعية تؤدي إلى تشويه صورة الإسلام العظيم في أعين الأجيال .. لأنه يقدم إلى الأجيال الناشئة : عقيدةً ميتة في القلب ، وشعائرَ تعبدية ، وأخلاقا .. وهذا المسلك يغرس التناقض في التكوين النفسي والسلوكي لمن يعرف الحقيقة .. وهذه مأساة .

٣- ولا يخفى على من عنده مَسْكةٌ من علم بالقرآن والسنة أن يرى أبعاد انحراف عامة المسلمين عن الإسلام الموحى به من عند الله عزَّ وجلّ .. وأن انحرافات كثيرة تحمل شعار (العقلانية) وتسوغ بـ(روح العصر) التي تحكم المعاملات الاقتصادية والعلاقات الاجتماعية .

فإذا ارتفع صوت مخلص يدعو إلى محاربة الأعمال الاقتصادية التي تقوم على الحرام ، وإلى هجر العلاقات والعادات الاجتماعية التي يحرمها أو يكرهها الإسلام .. فإنه ينهض إلى مواجهة الداعية كثير من الناس يرمونه بأنواع التهم التي تنال من عقله وفهمه ، وربما إخلاصه ، وفي هؤلاء المنكرين المعترضين رجال ينتسبون إلى العلم ويرغبون في عرض الإسلام في صورة سياسية واقتصادية واجتماعية تناسب روح العصر .. ويقول هؤلاء: لنكن واقعيين .. لقد تغير الزمان والإنسان .. وعلينا أن نقدم الإسلام إلى الأجيال في صورة تحببهم فيه ولا تبعدهم عنه .

فالواقعية عند كثير من الناس تعني : الأخذ ببعض ما أنزل الله تعالى ، والاعتراف (للمنكر) بأنه (معروف) ، أو السكوت عنه وعدم بيانه للناس ، لأن هذا ينفرهم .. وفي هذا المقام أذكر أبياتاً من الشعر تصور حال الشعوب الإسلاميّة ونتائج ما هي عليه من واقع نفسي عملي من تعاليم الإسلام .. وهذه الأبيات للشاعر وليد الأعظمي :

يا رب لطفك بالإســـلام قد أخذت ... من أهله عروة الإخلاص تنفصـــمُ
وأصبحت أمـــم الإســـلام قاطبـــة ... بين الأنـــام بســـيما الذلّ تتســـمُ
تســـتبدل الكفر بالإيمان وا أســـفا ... وتشـــرب الســـم ظناً أنه دســـمُ
أودى بها الطيش واللذات فانمحقت ... منها الشـــجاعة والإقدام والكرمُ
وغادرتهـــا دواعي المجـــد أجمعـــها ... وســـاورتها شـــكوك دونها الظلمُ
والمجد وعر فقل لي : كيف يســـلكه ... من لم يكن عنده ســـاق ولا قـــدمُ
وكيف ينهض للعليا أخو ضَعـــةٍ ؟! ... وكيف يدعـــو إلى الإصلاح متهمُ
ما قام فينا أخـــو رُشـــدٍ لينصحنا ... إلاّ وهاجت ظنون الســـوء تتهـــمُ

وإن دعانـــا إلى خيــــر ومكرمــة قلنا لــه غايــة أخرى هي الغُنُــمُ
يا ضيعة الحــق والإنصاف في بلــد فيه الرذيلــة عين والفســاد فــمُ
عشـــنا على هامش الدنيا بغير هدى يا للرزيــة لا عــرب ولا عجمُ
خلائــق كظلام الليـــل من يرهــا يقل بأمثال هذي تمســخ الأمــمُ

خلاصة وبيان

▪ إنّ قوى الشرّ في الأرض تغتصب أجزاء من أرض المسلمين ، وتعيث بمقدراتهم فساداً ، ثم تطالبهم بقبول الأمر الواقع الذي يضرب عليهم الذلة والمسكنة .. وكلما رضوا بوضع مهين انتقلت قوى الظلم بهم إلى وضع أكثر مهانة . وأنظمة الحكم في عالمنا الإسلاميّ مستسلمة يائسة لا تحرك ساكناً في سبيل التخلص من أخطبوط الاستغلال الغربي ، بل هي تزداد يوماً بعد يوم ارتماء في أحضان سياسة القوى الكبرى .. ولا يكتفي الحاكمون بذلك ، بل يمنعون ويحاربون أي تحرك شعبي يريد أن يسلك طريق التحرر ، وهم يفعلون كل ذلك تحت شعار (الواقعية) . وفي الحكام من يلجأ إلى الإسلام ليسوغ -بزعمه- ما صنع ويصنع ، ولربما وجد في العلماء الرسميين من يعتسف في التدليل على صواب ما يفعله المنهزمون !! .

والإسلام العظيم يرفض أن تسمى الأمور بغير أسمائها .. فإذا كانت الواقعية تعني : الرضى بالظلم ، والتنازل عن الحقوق ، وتمريغ الكرامة بالرغام ، والتبعية في كل شيء .. فإن هذه الواقعية مرفوضة كل الرفض بموازين الإسلام ، الذي يطالب المسلمين بالثورة على الواقع المهين ، وبالعمل وفق سنن الله في الكون والإنسان والحياة من أجل تحرير الإنسان من قيود الخرافة والظلم والطغيان .. بصرف النظر عن العناوين الخادعة التي يرفعها الطغاة البغاة .

▪ وأنظمة الحكم الجائرة التي تحكم المسلمين اليوم ، تبدي انزعاجها من بوادر العودة إلى دين الله عزَّ وجلَّ ، وتطالب دعاة الإسلام بأن يكونوا واقعيين ، ويقصدون بذلك : التخلي عن فكرة (تغيير) الواقع لصالح فكرة (ترقيع) الأوضاع القائمة ، وذلك بالعمل من خلال القنوات التي تسمح بها الأنظمة !! .

ونحب أن يدرك الدعاة إلى الله أموراً هامة :

١- إنّ مهمة المسلم في هذا العصر (تغييرية شاملة) وليست (إصلاحية جزئية) لأن جميع مؤسسات الأمة تصدر عن غير هدي الإسلام .

٢- إنّ الإسلام يأمر المسلم أن يستفيد مما يتوفر في الواقع من شروط وإمكانات توفر الجهد وتدفع الشر .. ولكن بشرط أن لا يشكل ذلك (قيداً) على الفكر والحركة .. وهذه مسألة في غاية الدقة والخطورة ،

وتحتاج إلى فقه شرعي وإدراك عميق لطبيعة تأثير الاختيارات التنظيمية ومنهج العمل على تكوين الأفراد والجماعات ، وعلى الاستقامة أو الانحراف عن الأهداف .

٣- إنّ الدعاة مطالبون بالتعرف على الواجبات التي لا يسمح الواقع الفاسد بها .. وبالعمل على توفير شروط تحقيقها .. وأن يتحملوا تكاليف ذلك .

نعم .. إنّ للواقع الجاهلي ضغطه وتأثيراته ، والاستقامة فيه لها تكاليفها .. ولكن لا يصح أبداً أن يتربى المسلم -مهما كانت الظروف- على التفاهم مع الواقع الجاهلي .. يقول الله تعالى : ﴿ **قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ** ... ﴾ [الممتحنة:٤] .

▪ ونحن في زمان اختلطت فيه حقائق الإسلام بكثير من جهالات الناس وعاداتهم التي لبست ثوب الدين ورفعت شعار العقلانية .. وكثير من الناس يتهمون من يدعوهم إلى الخير وإلى التطهر . بالتشدد والتطرف .. في هذه الظروف الشاذة يرتفع صوت يدعو إلى (الواقعية) في التعامل مع الناس في ظروف العصر ..

وعلى الدعاة الصادقين أن يكونوا واقعيين .. والواقعية لا تعني السكوت عن أخطاء الإنسان -مهما كانت- . كما لا تعني أن نربت على شهوات الناس وأن نسوغها لهم . فالواقعية هي التي تدفع الداعية إلى الحفاظ على إنسانية الإنسان وإرشاده إلى تحقيق غاية وجوده الإنساني .

وبعد :

فالواقعية هي أن يسلك المسلمون السبيل إلى أهداف الإسلام ، وفق منهج الإسلام في العمل لدين الله عزَّ وجلّ .. وأن يتخذوا من الوسائل ما يناسب كل مرحلة من مراحل المواجهة بين الحق والباطل .. وهو صراع لا يهدأ .. وعلى المسلمين أن يبقوا مع الحق دائما .. لا تخدعهم شعارات مضللة ، ولا ينال من عزيمتهم كيد الطغاة .. وأن يسيروا إلى أهدافهم مستعينين بالله عزَّ وجلَّ مرددين :

﴿ ... **رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا**

رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا

رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِه

وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا

أَنْتَ مَوْلانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٨٦] .

الخوف من الخطأ

حضرت لقاء ضمّ نخبة من أهل الفكر وشباب الدعوة .. طُرحت فيه (مشروعات) يروم أصحابها الخروج بالعمل الإسلاميّ من (العموميات) إلى (التحديد) ، ومن (الشعار) إلى (الواقع) ، فقد انصرمت سنوات وسنوات ونحن مشغولون بالحديث عن مخاطر (الارتجال في الأعمال) و(الجزئية في الفهم والاهتمام والعمل) و(الاشتغال ببعض هموم الحاضر مع فقدان النظر البصير إلى المستقبل ، والتقصير الكبير في تهيئة ظروف أفضل من أجل القيام بأعمال جليلة يكون لها أثرها البعيد في عملية التغيير) .

وكان الإجماع منعقداً على ضرورة تبني كل ما يساعد على تخطيط أفضل ؛ يسهم في استمرارية العمل وفق رؤية شرعية واعية للحاضر ، مع القدرة على استشراف المستقبل . ولكن (**الخوف من الخطأ**) حكم على جميع ما طرح باللجوء إلى هامش الاهتمامات . وتكررت لقاءات مماثلة طُرحت فيها مسائل ذات قيمة حظيت بالتأييد . ولكن الخوف من الخطأ وأدها في المهد!! وبمرور الأيام لمست في النفوس تسرب (الشك) بجدية كثير من الذين يملكون رؤية شاملة متوازنة واعية .. وما يحمله هذا الشك في طياته من خطر على (الثقة) و(الأمل) .

وكنت أقرأ في كلام الذي لا ينطق عن الهوى ﷺ فاستوقفني ما رواه الإمام أحمد والترمذي وغيرهما بسند حسن عن أنس أن رسول الله ﷺ قال : « **كُلُّ ابْنِ آدَمَ خَطَّاءٌ ، وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ** » .

فلبثت ملياً أحاول الربط بين هذه الحقيقة التي يقررها رسول الله ﷺ وبين سلوك كثير من الدعاة الذين يقعدهم الخوف من الوقوع في الخطأ عن القيام بأعمال يقرون بفائدتها وضرورتها .. ورجعت بذاكرتي إلى المجالس التي حضرتها لأتذكر حجج الذين يخافون من الخطأ ، فما وجدت غير (لقد علمتنا التجارب) ، وحاولت أن أتلمس في تجارب عدد كبير منهم (علة) موقفهم .. فوجدت أن الأسباب تكاد ترد إلى ثلاثة عوامل :

١- **الرجال الذين خاضوا تجارب الأمس .**
٢- **الظروف التي وقعت أثناءها التجارب .**
٣- **العقلية التي يتعامل بها الدعاة مع الخطأ والصواب .**

أما الرجال الذين كانوا في مركز القرار أو الممارسة فإنهم مهما كانوا عظماء لا يخرجون عن كونهم بشرا .. وقد مرّت بهم ظروف تفاعلوا معها بما لديهم من علم ووعي .. وبما يملكون من أخلاق .. وهذه جميعها لا تثبت على حال ، فالظروف تتغير ، والرجال يتفاضلون بالعلم والوعي والسلوك . فإذا أخطأ (فلان) فإن هذا لا يعني ضرورةً أن غيره في مقامه سيتصرف نفس التصرف .. حتى وإن كانت الظروف واحدة في الموقفين .. كما لا يعني أن الرجل نفسه سيعود إلى الخطأ إذا تابع الممارسة .

وأما العقلية التي يتعامل بها عامة الدعاة مع الخطأ والصواب فإنها -في الأعمّ الغالب- ليست العقلية الإسلاميّة .. إذ يربط كثيرون منهم بين (الخطأ) و(الإخلاص) ربطاً غير حميد .. فمن وقع في خطأ تناوشته ألسنة حداد لا تقف عند حدود الخطأ .. وإنما تذهب في تفسيرات تنال بها من إخلاص المخطئ .. وهذا أحد مصادر الخوف الرئيسية .

ولبثت مع حديث رسول الله ﷺ الآنف الذكر ، فوجدت نفسي تطوف في صفحات من حياة الرسول الكريم ﷺ وحياة الصحب الكرام رضوان الله عليهم أجمعين .. فتواردت إلى ذاكرتي مسائل عديدة تتعلق بالدعوة ، والتصرف الشخصي ، لفت فيها ربنا الكريم ﷻ نظر نبيه ﷺ إلى التصرف الأمثل في كل مسألة .. وكانت سبباً في نزول وحي يتلى إلى ما شاء الله تعالى .. وأضرب أمثلة من الذي حضرني .. فنحن نقرأ -مثلاً- قول الله تعالى : ﴿ **عَبَسَ وَتَوَلَّى ۞ أَنْ جَاءَهُ الأَعْمَى ۞ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى** ﴾ [عبس: ١-٣] ، وقوله عزَّ وجلَّ في مسألة أسرى بدر : ﴿ **مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ ...** ﴾ [الأنفال: ٦٧] ، وقوله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ ...** ﴾ [التحريم: ١] .

فالله تعالى لم يطعن في إخلاص الرسول ﷺ و لم يهجره بسبب ما صدر منه من نحو ما ذكرنا آنفاً .. هذا المعنى اللطيف نحن بأمس الحاجة إلى الوقوف عنده طويلاً طويلا .

ولا أتوسع في ذكر ما وقع من الصحابة رضوان الله عليهم ونزل فيه قرآن يوجه ويرشد إلى الأصوب .. بل أكتفي بذكر مثل واحد .. فنحن نقرأ في التعقيب على غزوة أحد قول الله تبارك وتعالى : ﴿ **وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ [آل عمران: ١٥٢] .

ثم نقرأ في السورة ذاتها وفي الحديث عن غزوة أحد :

﴿ **فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ** ﴾ [آل عمران: ١٥٩] .

فالقرآن سجل ما وقع ، ونبه الصحب إلى مواطن الخلل ، وأرشد الرسول ﷺ إلى وجوب تجاوز (ساعات الضعف) وعدم الوقوف طويلاً عند التصرفات الخاطئة ..

وهكذا سار ركب المؤمنين مع خير مرب وأكرم قائد ، ينـــزل عليهم الوحي فيسجل خلجات القلوب ، والضعف ، والقوة .. ويرشد إلى التي هي أقوم ..

كم يا ترى استمر هذا الأمر ؟

لقد استمر طيلة عمر النبي ﷺ بعد البعثة .. وهذه المسألة جديرة بالتأمل من دعاة مربين تتزلزل أقدامهم حين يقفون على أخطاء تصدر من رجال عاشوا في كنف الدعوة سنوات طويلة .. فيثورون ويتهمون أنفسهم وإخوانهم ومناهج العمل والتربية .. ولا يذكرون هذه الحقيقة .

ولا أريد بهذا أن أحط من شأن رصد الأخطاء .. ومحاولة وضع الأيدي على أسبابها .. ومواجهتها بما يلزم من خلال رؤية شرعية مستوعبة للنص وللظروف .. فقصة الثلاثة الذين تخلفوا يوم العسرة ، وتاب الله عليهم ، ما تزال معلماً يرشد إلى التقويم ويحمل في طياته دروساً عظيمة ليس هنا محل تفصيلها ، ولكن نذكر أحدها لمناسبة الحديث .. وهو : إنّ بعض الذين يعدون من (القاعدة الصلبة) ربما صدر منهم خطأ في لحظة ضعف بشري .. فإذا صدر الخطأ فقد وجب إنكاره عليهم بأسلوب جاد لا يحمل معنى أنهم لم يعودوا محلاً للثقة .

نخلص مما سبق إلى تسجيل الآتي :

١- إنّ نصوص الشرع تقرر أن الإنسان المؤمن ليس معصوماً من الخطأ .. ما دام حياً .

٢- وإنّ صدور الخطأ منه إنما يكون منقصة إذا وقف عليه صاحبه ثم أصر على الاستمرار فيه وتزيينه في أعين الناس .. أما إذا رجع عنه وأصلح فالوحي يؤكد : ﴿ ... **إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ** ... ﴾ [هود: ١١٤] .

٣- وإنّ التقويم يجب أن يتم في العمل الإسلاميّ ، لأنه يُمكِّن العاملين من وضع الأيدي على الصواب والخطأ ، ولا يصح أن يغفل العاملون عن تكوين (أجهزة التقويم) التي تملك قدرة حقيقية على تصويب مسيرة العمل الجماعي ، بصرف النظر عن جهة صدور الخطأ .

٤- وإسلامنا العظيم يعلم المؤمنين أن (الدين النصيحة) ويبين لمن تكون .. ولم يترك الأمر دون ضوابط، بل وضع أصولاً يجب اتباعها كي تؤتي النصيحة ثمرتها .. فحين يُكتشف الخطأ يجب أن يسعى إلى إصلاحه في غاية اللطف والجد .. فالقلوب مزارع فَلْيُزرعْ فيها طيبُ الكلام وصالحُ العمل .

٥- ونؤكد على وجوب الحذر من أخلاق الحزبيين التي تنتشر في صفوف المسلمين اليوم .. وتفسد ذات بينهم .. وهي أخلاق إذا سادت انطلق صاحبها من البغض لا من الحبّ ، وتمرس على رصد الأخطاء بقصد التجريح والهدم .. لا بقصد الإصلاح .

وهذه المعاني التي أتينا على ذكرها لا بد من تعميقها في قلوب العاملين المخلصين حتى تصير من سجاياهم.. وعندئذ يرتفع سوط النقد اللاذع الذي يتجاوز الأعمال إلى النيات .. ويوم يلتزم العاملون بخلق الإسلام في معاملة المخطئ ؛ ستجد الآراء البناءة طريقها إلى التنفيذ .. ويفتح باب المبادرات الناضجة على مصراعيه .. وبذلك يتحقق خير كبير .

الدعاة .. وفن القراءة

-١-

لاحظت في معرض الكتاب الثاني والعشرين ، الذي أقيم في القاهرة من ٢٣/٠١ إلى ٠٥/٠٢/١٩٩٠م ، ظاهرة انتشار الكتاب الإسلاميّ ، ولفت انتباهي الإقبال الكبير على شراء الكتب القديمة ، التي يطلق عليها أحياناً (كتب التراث) ، أو الكتب التي تسير على نهجها في التأليف أو الاهتمام وإن كان مؤلفوها معاصرين .

ورأيت عدداً من دور النشر والمكتبات المشاركة في المعرض تبيع الكتاب الإسلاميّ ، على الرغم من كونها مؤسسات غير ملتزمة فكراً وسلوكاً بالإسلام! .

سألت صاحب دار للنشر ، وكان معه صديق يهتم بمسألة الثقافة ، عن هذه الظاهرة .. فأجابا : إنها ظاهرة تدل على عودة الأمة إلى الذات .. فأمتنا أوجدها الإسلام .. وقد نأت عنه بجهلها الذي استغله أعداؤها في الداخل والخارج فأثخنوها بجراح كادت تودي بها . وحين ذاقت الأمة وبال البعد عن دين الله عزَّ وجلَّ أخذ فريق منها يلتمس طريق النجاة .. وانتشار الكتب الإسلاميّة مؤشر على ذلك .

قلت لصاحبي : إننا ندين الله تعالى بأن ما أنزله على رسوله محمد ﷺ هو سبيلنا الوحيد إلى العزة في الدنيا والكرامة في الآخرة .. ولكن لكي نسلك سبيل الإسلام على بصيرة .. فلا بد أن نفرق بين (الوحي) وبين (اجتهاد علمائنا الثقاة في أزمنتهم المختلفة) .. لأن الوحي يستوعب الأزمنة والأماكن .. فلا يصح أن نحصر علاقة النص بواقع الناس في جيل من الأجيال .. إذا كان تباين ظروف الزمان والمكان يدعو إلى إعمال النظر .. ثم إن من يوسع النظر في كتب الصالحين من سلفنا فإنه يعلم أنها تحوي مسائل لا تتغير بتغير الزمان والمكان .. وإن كانت درجة الإحاطة بها تختلف من عالم لآخر .. كما يعلم أن في كتبهم قضايا أثرت فيها ظروف عاصروها ، وأوضاع عالجوها .. وهي مسائل تفرض على الأجيال الاجتهاد فيها ، لأن حياة الناس السياسية والاجتماعية والاقتصادية .. إلخ في تبدل مستمر .. وأشير هنا إلى عدد من الأمثلة :

- **حدود العلاقة بين الحاكم والمحكوم .**
- **الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .. كيف يكون ؟**
- **دور كل من الرجل والمرأة في النشاط العام ، والصور العملية المعبرة عن الاستفادة منهما .**

وأخشى أن ننظر إلى هذه المسائل وأضرابها من منطلقات الأجيال التي نقرأ لعلمائها ، فنجد أنفسنا أمام تحديد طريقة التعامل مع الواقع الذي تبدل وفق طريقة من سبقنا ، فنقع في أخطاء دون قصد منا . ولا ريب عندي في أن قراءة كتب علمائنا السابقين ضرورة .. لأنها معين يستقى منه .. ولكن القراءة فن يقوم على

علم ، ويجب أن نتعلم أصول القراءة البصيرة .. لئلا نضع في عقولنا وقلوبنا من المعاني ما يقيدنا أو يصرفنا عن التعامل الشرعي مع الواقع القائم .

قال أحدهما : أنا معك في تخوفك هذا .. ولكني أرى أن ما نحصله من جوانب إيجابية خطوة على طريق الإصلاح .. فواقع أمتنا في جميع أقطارها آسن .. فإذا تحركت فيه بعض معاني الخير .. كان هذا حسنا .. وعسى أن يأتي يوم يشعر فيه جيلنا بضرورة التفريق بين النص الملزم لكافة الأجيال وبين آراء العلماء سواء كانوا سابقين أم معاصرين .

قلت : آمل أن يكون هذا قريباً .. وهذا -عندي- لن يكون إلا إذا أدرك الدعاة ضرورة توفير شروط الاجتهاد في مسائل الدعوة ، وفي مجال العلاقات الاجتماعية ، وفي طريقة التعامل مع الأوضاع السياسية ، وكذلك المعاملات ، وقل مثل هذا في كل قضية يصح أن يجتهد الإنسان فيها بضوابط النص الشرعي .. وأملي كبير في أن تسفر الحركة العلمية في هذا العصر عن وعي الذات من جانب الدعاة إلى الله عزَّ وجلَّ قبل فوات الأوان .. وأخشى ما أخشاه أن تفرز حركة الطباعة والنشر مجموعة من المعوقات الذاتية ، في حين تساعدنا على التخلص من معوقات أخرى .. فيدفعنا هذا إلى توهم أننا تخلصنا من قيود أبعدتنا عن الصواب في العمل .. بينما نرسف في قيود لا نراها .. لأننا لا نملك قدرة على رؤيتها بسبب تكويننا الثقافي .. وربما دفعنا ذلك إلى رفض كل من يدعونا إلى إعادة النظر في منطلقاتنا وموازيننا والنتائج التي توصلنا إليها .

ويشاء الله تعالى أن ألتقي في مكان آخر بأخ فاضل علمت أنه شعلة نشاط في الحقل الإسلاميّ الذي اقتنع بجدوى العمل من خلاله .. وكان حوارنا منصباً على العمل الإسلاميّ وشروط فلاحه في تحقيق أهدافه .. وتناولنا موضوع المراجع التي يقرؤها شباب الحركة الإسلاميّة .. وكان موضع اتفاق أن تحقق هذه القراءة (الاتباع) وتنأى بصاحبها عن (الابتداع) .. وأن من دلائل الاتباع البصير .. التعامل مع كل مسألة بالحجم الذي شرعه الله عزَّ وجلّ .. وبالطريقة التي تضبطها النصوص الشرعية . وهذه قضية في غاية الأهمية والخطورة .. لأن موضوع (الاتباع) لا ينحصر بأمر دون آخر ؛ فهو ليس محصوراً في جوانب العقيدة القلبية والشعائر التعبدية .. بل يشمل كل عمل فردي أو جماعي على مستوى الدولة والأمة .. ومن ذلك منهج الدعوة ووسائلها .. إذ يجب على المسلمين في كل عصر أن يكتشفوا التصرف الشرعي المناسب لظروف زمانهم ومكانهم .. وإلا خالفوا الصواب .

وأضاف أخي : والقراءة في كتب الأصول -ويعني بها كتب علمائنا السابقين .. أو كتب من ساروا على نهجهم في التأليف من المعاصرين -تزود المسلم بضوابط تمكنه من معرفة الحق والباطل .. وتساعده على اتخاذ الموقف المناسب من كل قضية سواء كانت معاصرة أم جاءتنا من أجيال سابقة .

وأدركت أننا متفقان ومختلفان على الرغم من وحدة لغة التخاطب . فقلت له : أنا معك في ضرورة وفائدة الرجوع إلى ما كتبه الأثبات من علمائنا الأبرار .. فهذا يسهم في تزويد المسلم بالأصول التي تمكنه من التفريق

بين الحق وبين الباطل .. بين الاتباع وبين الابتداع .. ولكن (الاستغراق) في قراءة المسائل التي عالجوها يأخذ بمجامع تفكيرنا ، ويوجه اهتمامنا إلى القضايا التي أهمتهم .. ويضعف العناية الجادة بالمشكلات التي أفرزها هذا العصر .. كما يصرفنا عن الاهتمام بالقضايا الكبرى الخاصة بكل قطر من أقطار عالمنا الإسلاميّ .. وهذا أمر فطري .. لأن النفس تنفعل بما يقع تحت بصرها ، وبما يصل إلى سمعها . ومن هنا كان ضرورياً أن يعدد المرء مصادر معرفته وثقافته ، وخاصة الجديد منها .. فهذا يفجر في قلب المرء الاهتمام بالمسائل الكبرى .. وما تطرحه من واجبات .. وهذا لا يمكن الوصول إليه بالاعتكاف على كتب أسلافنا .. بل ينبغي أن نقرأ ما كتبه الدعاة والعلماء في عصرنا .. وأن نسعى إلى حضور مجالسهم والتعاون معهم على البر والتقوى ..

هذه الحقائق يجب أن تدرك في وقت مناسب من عمر الفرد ، ومن عمر الجماعة .. لأن القراءة مسؤولية .. وهي في الوقت ذاته فن .. وهذه المسؤولية لا تسقط عن كاهل الفرد إذا انتسب إلى جماعة .. ولا يخفى أن نمو الفرد الفكري والعلمي يسهم في تحسين وضع الجماعة .. وهي أيضاً مسؤولية الجماعة نحو أبنائها .. فعلى الفرد وعلى الجماعة أن يعملوا على تحصيل فن القراءة الواعية البصيرة .

-٢-

تحدث إلي مدير عام إحدى شركات توزيع الكتب والصحف والمجلات في بلد عربي عن (القراءة) فقال والحزن بادٍ على محياه : إنّ القارئ العربي ضعيف الاهتمام بقراءة الكتب والمجلات الجادة .. ويهتم كثيراً بكل ما يتعلق بالرياضة والأزياء ونحو ذلك !! وإني ليحزنني إدبار عامة الناس عن إقتناء الكتب العلمية والفكرية والأدبية والتربوية .. مع أننا أمة بأمس الحاجة ، في هذه المرحلة التاريخية ، إلى تثقيف أجيالنا ، وبناء عقولهم ، ورفع مستوى اهتماماتهم ، لكي يبنوا مستقبلاً خيراً من حاضرنا .

ثم أضاف قائلا : ولا يخفى أن أكثر الكتب رواجاً في هذه المرحلة هو الكتاب الإسلاميّ .. ومشكلة القارئ المسلم كونه يقبل على قراءة لون من الكتابات ويعرض عن أخرى !! وبما أننا شركة توزيع فإننا نوزع الكتب والصحف التي تعود علينا بالمال .. وهو ضروري لاستمرار المؤسسات .. وهذا يدفعنا إلى توزيع المطبوعات التي نتوقع لها الرواج !!

سمعت كلام الرجل وهو يتحدث من موقع الممارسة .. فتحركت في قلبي معانٍ كانت تَرِدُ علي كلما مررت بموقف أطلع من خلاله على مدى (الخواء الثقافي) الذي تعاني منه أمتنا في هذه المرحلة التاريخية الحرجة .. والمعاني التي أنقلها في هذه السطور الناصحة ، لا تتحدث عن دور شياطين الإنس الذين يسرهم أن يروا الشعوب فارغة من المعاني البانية ، ويزعجهم أن تعي الشعوب ذاتها ، وأن تشعر بواجباتها ، وأن تسير على طريق تحقيق أهدافها في الحرية والكرامة .. أقول : لن أتحدث عن هؤلاء الشياطين وإنما أتوجه بكلامي إلى الغيورين من رجال ونساء هذه الأمة :

أولاً : ينبغي أن يعيد الآباء –وخاصة إن كانوا من رجال ونساء الحركة الإسلاميّة– النظر في طريقة تعاملهم مع وسائل المعرفة والثقافة لكي يكونوا أوسع علماً ، وأعمق وعياً ، وأكبر قدرة على التربية وتكوين لبنات صالحة تسهم في إنقاذ أمتنا من وهدة الضياع ومستنقع الذل والهوان .. ولنضرب على ما نريد بيانه مثلاً بالكتاب فنقول : إنّ الكتاب ما يزال هو وسيلة تحصيل المعرفة وبناء الثقافة الجادة .. والناظر المدقق في علاقة كثير من المسلمين بالكتاب يرى ما يذهله .. إنه يرى (ضعف الرغبة في القراءة الجادة الهادفة) .. ثم إنّ المعلومات التي لدى عامة المسلمين .. في معظمها .. سطحية جزئية حصلوا عليها عن طريق الاحتكاك .. وهو قليل ، أو عن طريق الصحف والمجلات .. على الرغم من توفر الكتاب في البيوت أو وجوده في متناول أيديهم.

ويدمى القلب على أوقات المسلمين الثمينة التي تهدر في الترهات ، وفي الجلوس طويلاً أمام وسائل الأصل فيها قتل الوقت وعدم تزويد الإنسان بما ينفع ، مثل (التلفزيون) .

هذه مشكلة في حاجة إلى إدراك وعلاج من قبل الآباء قبل فوات أوان الإدراك وتناول العلاج . وحين يصلح الآباء علاقتهم مع وسائل الثقافة البانية فإن أثرهم .. بفعل القدوة .. سيصل إلى أبنائهم وفي ذلك خير كبير للأمة .

ثانياً : وأناشد العاملين في الحقل الإسلاميّ أن يحسنوا التعامل مع وسائل الثقافة والمعرفة .. حتى ترى الأمة من خلالهم مواقع أقدامها .. وحتى تواجه التحديات وتنتصر في معركة الواجب .

إني ليؤلمني أن الكثرة الكاثرة من الداعين إلى الحق ما زالوا –رغم النكبات وتوالي صنوف المعاناة– يعانون من داء القراءة الجزئية للإسلام العظيم .. والقراءة الجزئية لما يجري في أرض الواقع ، وهؤلاء الدعاة يظهرون (كباراً) في أعين العامة وفي نظر الشباب الذين يلتفون حولهم .. لأن مستوى الثقافة لدى أمتنا متدنٍ ، ولأن همة عامة الشباب لا تذهب في طلب العلم والمعرفة إلى أبعد ممن سبقهم ، فيتوهم كثير منهم أن ما وصلوا إليه من علم وثقافة يكفيان للتحرك السليم والعمل المنتج .. وهذا الوهم يشل قواهم ويفرض عليهم التخلف .

ثالثاً : ولا يخالجني شك في أن الذي يخرجنا من أزمتنا الثقافية هو: أن نجدد في قلوبنا وعقولنا (مفهوم غاية الوجود الإنساني) : ﴿ **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ** ﴾ [الذاريات: ٥٦] ، وأن نوقن بأن ذلك لا يتحقق كما يريد الله عزَّ وجلَّ إلا بالعلم : ﴿ ... **هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ** ... ﴾ [الزمر: ٩] ﴿ ... **إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ** ... ﴾ [فاطر: ٢٨] . والعلم لا يتم إلا بمعرفة نصوص الشرع ودلالتها .. ونسبة كل نص إلى بقية النصوص ، وإلا بمعرفة الواقع المتغير .. الذي يطالبنا بالاجتهاد ووضع صور شرعية للتعامل مع الحياة بكافة صورها وأشكالها .

فإن صنعنا ذلك .. فلن يشغلنا واجب عن واجب ولا نفل عن فرض .. إلا سهواً أو غفلة .. ولن تصرفنا رغبة أو شهوة أو رهبة عن (الإحسان) في كل شيء .. فنحسن في العلم ونحسن في العمل .. لأننا نستحضر

باستمرار إيماننا بأن الله معنا يسمع ويرى .. فيدفعنا هذا إلى الحياء من الله عزَّ وجلَّ أن يرانا حيث نهانا .. أو أن يفقدنا حيث أمرنا .. أو أن نعبده تعالى بجهل .

فيا معشر الآباء والدعاة والمربين .. ثابروا على طلب العلم بكل ضروبه حتى يأتيكم اليقين .. وربوا بعلمكم وواقعكم أجيالنا على عشق الثقافة والمعرفة .. واحرصوا على أن يكون أبناؤكم خيراً منكم يكن ذلك في ميزان حسناتكم أجراً عظيماً .. وتدبروا قول الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ... ﴾ [التحريم: ٦] .

أسلوب النبوة في التبليغ

إنّ الذي يتتبع الهدي النبوي في تبليغ ما أوحى الله تعالى به يعلم أن النبي ﷺ كان داعياً إلى الله تعالى ومعلماً ومرشداً في كل أحيانه . فما كان لديه وقت يخصصه للدعوة والإرشاد .. وآخر يتخفف فيه من مسؤولية البيان والبلاغ والإرشاد إلى سواء السبيل .. وكانت هذه حاله سواء كان مع الناس أم كان مع أهله وذويه في البيت .

هذه الحقيقة الأولية ينبغي على حملة العلم الشرعي ، والدعاة إلى الله ، وشباب الحركة الإسلاميّة ، أن يدركوها إدراكاً قلبياً وليس ذهنيا .. لكي يكون ارتباطهم بالإسلام ارتباط مسؤولية لا ارتباط وظيفة أو هواية تؤدى في أوقات .. ثم ينصرف المرء إلى شؤونه ناسياً الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة إلى الله عزَّ وجلّ .. ولئلا تنحصر عملية التبليغ والبيان في حدود جلسات تقام في أوقات محدودة .. ويتوجه الخطاب فيها إلى أفراد معينين .

ثم إنّ المطلع على أسلوب النبوة في تبليغ الحقائق الدينية ليقف مشدوهاً أمام التنوع الذي كان ﷺ يأخذ به .. وهذا أشعرني أننا في أمس الحاجة إلى التذكير بأساليب البيان النبوي في الدعوة إلى الله عزَّ وجلّ .. وما أذكره من أمثلة لا يستوعب الموضوع وإنما يشير إلى جوانب منه تكفي في بيان ضرورة الاهتمام بهذا الأمر العظيم :

١- اغتنام الحدث :

عن عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ﷺ قَال : قُدِمَ عَلَى رسول الله ﷺ بِسَبْي ، فَإِذَا امْرَأَةٌ مِنَ السَّبْيِ كَانَتْ فَقَدَتْ صَبِيَّهَا ، وتَضَرَّرَتْ بِاجْتِماعِ اللَّبَنِ فِي ثَدْيَيْهَا ، فَكَانَتْ تَحْلُبُ ثَدْيَهَا تَسْقِي ، وَإِنْ وَجَدَتْ صَبِيًّا فِي السَّبْيِ

أَخَذَتْهُ فَأَرْضَعَتْهُ ليخف عنها ، فَلَمَا وَجَدَتْ صَبِيَّها بِعَيْنِهِ أَخَذَتْهُ فالْتَزَمَتْهُ فَأَلْصَقَتْهُ بِبَطْنِهَا وَأَرْضَعَتْهُ . فَقَالَ لَنَا النَّبِيُّ ﷺ : « **أَتُرَوْنَ هَذِهِ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ ؟** »

قُلْنَا : لاَ ، وَهِيَ تَقْدِرُ عَلَى أَنْ لاَ تَطْرَحَه .

فَقَالَ : « **اللَّهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بِوَلَدِهَا** »(١٩) .

▪ فالرسول ﷺ اغتنم هذا الحادث الذي يجسد الرحمة في حياة البشر .. ليقرر أمراً غيبياً .. ألا وهو (رحمة الله تعالى) .

▪ ورحمة الله العظيمة يحدثنا عنها ربنا الكريم فيقول : ﴿ ... **وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ** ... ﴾ [الأعراف: ١٥٦] . كما يحدثنا عنها رسول الله ﷺ في حديث آخر فيقول : « **جَعَلَ اللَّهُ الرَّحْمَةَ مِائَةَ جُزْءٍ ، فَأَمْسَكَ عِنْدَهُ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ ، وَأَنْزَلَ فِي الأَرْضِ جُزْءًا وَاحِدًا ، فَمِنْ ذَلِكَ الْجُزْءِ تَتَرَاحَمُ الْخَلاَئِقُ ، حَتَّى تَرْفَعَ الدَّابَّةُ حَافِرَهَا عَنْ وَلَدِهَا خَشْيَةَ أَنْ تُصِيبَهُ** »(٢٠) .

٢- ضرب المثل من الواقع :

عن أنس ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « **لَلَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَ عَلَى رَاحِلَتِهِ بِأَرْضٍ فَلاَةٍ ، فَانْفَلَتَتْ مِنْهُ وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ ، فَأَيِسَ مِنْهَا ، فَأَتَى شَجَرَةً فَاضْطَجَعَ فِي ظِلِّهَا وَقَدْ أَيِسَ مِنْ رَاحِلَتِهِ ، فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ هُوَ بِهَا قَائِمَةً عِنْدَهُ ، فَأَخَذَ بِخِطَامِهَا ثُمَّ قَالَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ : اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ ، أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ** »(٢١) .

٣- محاورة السائل لتثبيت المعنى الشرعي في النفس :

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ :

قَالَ نَاسٌ : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ؟

قَالَ : « **هَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الشَّمْسِ فِي الظَّهِيرَةِ لَيْسَتْ فِي سَحَابَةٍ ؟** »

---

(19) رواه الشيخان ، وهو مأخوذ عن (التصوير الفني في الحديث النبوي) د. محمد الصباغ ص ٨٦ ، وقال د. الصباغ : والحديث بنصه من روايات جمعتها ، واستعنت بزيادة من رواية الاسماعيلي أوردها ابن حجر في (الفتح) .

(20) رواه مسلم عن أبي هريرة .

(21) رواه الشيخان وغيرهما .

قَالُوا : لاَ

قَالَ : « **فَهَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ لَيْسَ فِي سَحَابَةٍ ؟** »

قَالُوا : لاَ

قَالَ : « **فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لاَ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ رَبِّكُمْ إِلاَّ كَمَا تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ أَحَدِهِمَا** »[٢٢] .

٤- صنع الحدث وإثارة الأسئلة :

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَتَى الْمَقْبَرَةَ فَقَالَ : « **السَّلاَمُ عَلَيْكُمْ دَارَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ . وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ بِكُمْ لاَحِقُونَ ، وَدِدْتُ أَنَّا قَدْ رَأَيْنَا إِخْوَانَنَا** »

قَالُوا : أَوَلَسْنَا إِخْوَانَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟

قَالَ : « **أَنْتُمْ أَصْحَابِي ، وَإِخْوَانُنَا الَّذِينَ لَمْ يَأْتُوا بَعْدُ** »

فَقَالُوا : كَيْفَ تَعْرِفُ مَنْ لَمْ يَأْتِ بَعْدُ مِنْ أُمَّتِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟

فَقَالَ : « **أَرَأَيْتَ لَوْ أَنَّ رَجُلاً لَهُ خَيْلٌ غُرٌّ مُحَجَّلَةٌ بَيْنَ ظَهْرَيْ خَيْلٍ دُهْمٍ بُهْمٍ ، أَلاَ يَعْرِفُ خَيْلَهُ ؟** »

قَالُوا : بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ

قَالَ : « **فَإِنَّهُمْ يَأْتُونَ غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِنَ الْوُضُوءِ ، وَأَنَا فَرَطُهُمْ عَلَى الْحَوْضِ ، أَلاَ لَيُذَادَنَّ رِجَالٌ عَنْ حَوْضِي كَمَا يُذَادُ الْبَعِيرُ الضَّالُّ . أُنَادِيهِمْ : أَلاَ هَلُمَّ .**

فَيُقَالُ : إِنَّهُمْ قَدْ بَدَّلُوا بَعْدَكَ

فَأَقُولُ : « سُحْقًا سُحْقًا »[٢٣] .

٥- إعطاء معلومات تثير لدى السامعين السؤال عن مثيلات لها أو أشباه :

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « **مَا مِنْ صَاحِبِ ذَهَبٍ وَلاَ فِضَّةٍ لاَ يُؤَدِّي مِنْهَا حَقَّهَا ، إِلاَّ إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ صُفِّحَتْ لَهُ صَفَائِحُ مِنْ نَارٍ فَأُحْمِيَ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَيُكْوَى بِهَا جَنْبُهُ وَجَبِينُهُ وَظَهْرُهُ كُلَّمَا بَرَدَتْ أُعِيدَتْ لَهُ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ حَتَّى يُقْضَى بَيْنَ الْعِبَادِ فَيَرَى سَبِيلَهُ إِمَّا إِلَى الْجَنَّةِ وَإِمَّا إِلَى النَّارِ** »

---

(22) رواه البخاري ومسلم وغيرهما .

(23) رواه مسلم وابن خزيمة وغيرهما .

قِيلَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ فَالإِبِلُ ؟

قَالَ : « **وَلاَ صَاحِبُ إِبِلٍ لاَ يُؤَدِّي مِنْهَا حَقَّهَا ، وَمِنْ حَقِّهَا حَلَبُهَا يَوْمَ وِرْدِهَا ، إِلاَّ إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ بُطِحَ لَهَا بِقَاعٍ قَرْقَرٍ** -القاع : المستوى الواسع من الأرض والقرقر : مثله- **أَوْفَرَ مَا كَانَتْ عَلَيْهِ ، لاَ يَفْقِدُ مِنْهَا فَصِيلاً وَاحِدًا ، تَطَؤُهُ بِأَخْفَافِهَا وَتَعَضُّهُ بِأَفْوَاهِهَا كُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ أُولاَهَا رُدَّ عَلَيْهِ أُخْرَاهَا**[٢٤] **فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ حَتَّى يُقْضَى بَيْنَ الْعِبَادِ فَيَرَى سَبِيلَهُ إِمَّا إِلَى الْجَنَّةِ وَإِمَّا إِلَى النَّارِ** »

قِيلَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ فَالْبَقَرُ وَالْغَنَمُ ؟

قَالَ : « **وَلاَ صَاحِبُ بَقَرٍ وَلاَ غَنَمٍ لاَ يُؤَدِّي مِنْهَا حَقَّهَا إِلاَّ إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ، بُطِحَ لَهَا بِقَاعٍ قَرْقَرٍ لاَ يَفْقِدُ مِنْهَا شَيْئًا ، لَيْسَ فِيهَا عَقْصَاءُ** -ملتوية القرنين- **وَلاَ جَلْحَاءُ** -لا قرون لها- **وَلاَ عَضْبَاءُ** -التي انكسر قرنها- **تَنْطَحُهُ بِقُرُونِهَا وَتَطَؤُهُ بِأَظْلاَفِهَا ، كُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ أُولاَهَا رُدَّ عَلَيْهِ أُخْرَاهَا فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ حَتَّى يُقْضَى بَيْنَ الْعِبَادِ فَيَرَى سَبِيلَهُ إِمَّا إِلَى الْجَنَّةِ وَإِمَّا إِلَى النَّارِ** »

قِيلَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ فَالْخَيْلُ ؟

قَالَ : « **الْخَيْلُ ثَلاَثَةٌ ، هِيَ لِرَجُلٍ وِزْرٌ ، وَهِيَ لِرَجُلٍ سِتْرٌ ، وَهِيَ لِرَجُلٍ أَجْرٌ .**

- **فَأَمَّا الَّتِي**[٢٥] **هِيَ لَهُ وِزْرٌ فَرَجُلٌ رَبَطَهَا رِيَاءً وَفَخْرًا وَنِوَاءً عَلَى أَهْلِ الإِسْلاَمِ ، فَهِيَ لَهُ وِزْرٌ .**

- **وَأَمَّا الَّتِي هِيَ لَهُ سِتْرٌ فَرَجُلٌ رَبَطَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَمْ يَنْسَ حَقَّ اللَّهِ فِي ظُهُورِهَا وَلاَ رِقَابِهَا**[٢٦] **، فَهِيَ لَهُ سِتْرٌ .**

- **وَأَمَّا الَّتِي هِيَ لَهُ أَجْرٌ فَرَجُلٌ رَبَطَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لأَهْلِ الإِسْلاَمِ فِي مَرْجٍ وَرَوْضَةٍ ، فَمَا أَكَلَتْ مِنْ ذَلِكَ الْمَرْجِ أَوْ الرَّوْضَةِ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ كُتِبَ لَهُ عَدَدَ مَا أَكَلَتْ حَسَنَات . وَكُتِبَ لَهُ عَدَدَ أَرْوَاثِهَا وَأَبْوَالِهَا حَسَنَات ، وَلاَ تَقْطَعُ طِوَلَهَا** -حبلها- **فَاسْتَنَّتْ** -جرت- **وَصَعِدَتْ شَرَفًا أَوْ شَرَفَيْنِ إِلاَّ كَتَبَ اللَّهُ لَهُ عَدَدَ آثَارِهَا وَأَبْوَالِهَا حَسَنَات . وَلاَ مَرَّ بِهَا صَاحِبُهَا عَلَى نَهْرٍ فَشَرِبَتْ مِنْهُ ، وَلاَ يُرِيدُ أَنْ يَسْقِيَهَا ، إِلاَّ كَتَبَ اللَّهُ لَهُ عَدَدَ مَا شَرِبَتْ حَسَنَات** » .

- قِيلَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ فَالْحُمُر ؟

---

(24) قال النووي في شرح مسلم (٦٥/٧) : هكذا في جميع الأصول في هذا الموضع . قال القاضي عياض : قالوا : جاء بعده في الحديث الآخر من رواية سهيل عن أبيه وما جاء في حديث المعرور بن سويد عن أبي ذر « كلما مر عليه أخراها رد عليه أولاها » وبهذا ينتظم الكلام .

(25) قال النووي في شرح مسلم (٦٦/٧) : هكذا في أكثر النسخ «التي» ووقع في بعضه «الذي» وهو أظهر وأوضح .

(26) قال النووي في شرح مسلم (٦٦/٧) : وقيل إنّ المراد بالحق في رقابها الإحسان إليها والقيام بعلفها وسائر مؤنها .

– قَالَ : « **مَا أُنْزِلَ عَلَيَّ فِي الْحُمُرِ شَيْءٌ إِلاَّ هَذِهِ الآيَةَ الْفَاذَّةُ الْجَامِعَةُ ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۞ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾** [الزلزلة: ٧-٨][٢٧]

٦- لفت الانتباه إلى وجوب الاهتمام بشؤون الناس بأسلوب مشوق :

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « **إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ : يَا ابْنَ آدَمَ مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِي .**

قَالَ : يَا رَبِّ كَيْفَ أَعُودُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ؟

قَالَ : أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِي فُلانًا مَرِضَ فَلَمْ تَعُدْه . أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ عُدْتَهُ لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ .

يَا ابْنَ آدَمَ! اسْتَطْعَمْتُكَ فَلَمْ تُطْعِمْنِي .

قَالَ : يَا رَبِّ وَكَيْفَ أُطْعِمُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ؟

قَالَ : أَمَا عَلِمْتَ أَنَّهُ اسْتَطْعَمَكَ عَبْدِي فُلاَنٌ فَلَمْ تُطْعِمْهُ ، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ أَطْعَمْتَهُ لَوَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي ؟

يَا ابْنَ آدَمَ اسْتَسْقَيْتُكَ فَلَمْ تَسْقِنِي ؟

قَالَ : يَا رَبِّ كَيْفَ أَسْقِيكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ؟

قَالَ : اسْتَسْقَاكَ عَبْدِي فُلاَنٌ فَلَمْ تَسْقِهِ ، أَمَا إِنَّكَ لَوْ سَقَيْتَهُ وَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي »[٢٨] .

٧- القيام بعمل مثير للانتباه ثم سؤال الحاضرين عن سببه :

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَضَحِكَ ، فَقَالَ : « **هَلْ تَدْرُونَ مِمَّ أَضْحَكُ ؟**

قَالَ : قُلْنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ .

قَالَ : « **مِنْ مُخَاطَبَةِ الْعَبْدِ رَبَّهُ ، يَقُولُ العَبْدُ : يَا رَبِّ أَلَمْ تُجِرْنِي مِنَ الظُّلْمِ ؟**

قَالَ : **يَقُولُ : بَلَى**

قَالَ : **فَيَقُولُ : فَإِنِّي لاَ أُجِيزُ عَلَى نَفْسِي إِلاَّ شَاهِدًا مِنِّي .**

---

(27) رواه مسلم .

(28) رواه مسلم .

قَالَ : **فَيَقُولُ : كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ شَهِيدًا وَبِالْكِرَامِ الْكَاتِبِينَ شُهُودًا .**

قَالَ : **فَيُخْتَمُ عَلَى فِيهِ . فَيُقَالُ لأَرْكَانِهِ : انْطِقِي .**

قَالَ : **فَتَنْطِقُ بِأَعْمَالِهِ .**

قَالَ : **ثُمَّ يُخَلَّى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَلاَمِ .**

قَالَ : **فَيَقُولُ : بُعْدًا لَكُنَّ وَسُحْقًا فَعَنْكُنَّ كُنْتُ أُنَاضِلِ »**[٢٩] .

خلاصة وبيان

من الأمثلة التي أتينا على ذكرها يظهر لنا ما يأتي :

١- **إنّ اغتنام الحادث** في بيان حقائق الإسلام له تأثير عظيم على النفس البشرية .. وقوى الشر المتحكمة بمصائر الشعوب في عصرنا تستغل الحوادث ، بل وتزيفها ، من أجل التأثير على الإنسان في الاتجاه الذي تريد .. فحريٌ بدعاة الإسلام أن يغتنموا ما يقع في حياة الناس من حوادث تؤهل الناس لاستماع الحق الذي يحررهم من كل أنواع القيود المرهقة للإنسان .

ولكي يكون صوت الدعاة مسموعاً في عالم اليوم .. فإن عليهم أن يرتقوا بوسائلهم إلى مستوى الوصول ، وبوضوح ، إلى عدد كبير من الناس ..

٢- **وأما ضرب المثل من الواقع** .. فلا يجيده إلا صاحب الرسالة الذي يعيش مع الناس ويتفاعل مع الحياة .. فهذا إذا تكلم أو كتب أجاد وأفاد .. أما من ابتعد عن الناس وخاطبهم بحقائق الإسلام فإنه أقل تأثيراً من المخالط ، ونحن بأمس الحاجة إلى الداعية الذي يخالط الناس ويحتفظ بمضمونه ومظهره الرباني .. وما أعزّ هذا في عصرنا !

٣- **ومحاورة الناس من أجل تثبيت المعاني الشرعية في النفس البشرية** .. تطالب الدعاة بأن يرتفعوا بقدرتهم البيانية .. فأسلوب (القصة) في عصرنا قد يقوم بهذا الدور الهام .. ونحن بانتظار تطور كتاب القصة الإسلاميّين .. إلى المستوى المطلوب في هذا العصر .

ومن أوتي موهبة في هذا الباب فعليه أن ينمي ما وهبه الله تعالى لكي يسهم في تحرير البشر من الآداب القصصية المدمرة لخصائص الإنسان السوي .

٤- **ولا يخفى ما لصنع الحدث الذي يثير تساؤلات لدى الآخرين** .. من الأثر في إيصال المعلومات إلى الناس .. وهذا من وسائل التعليم .. ولا ينهض به إلاّ معلم مستوعب لما يعلم .

---

(29) رواه مسلم .

٥- **وأما إعطاء معلومات تثير لدى الناس أسئلة حول أشباه المسائل المطروحة** .. فإنها وسيلة تعليم جيدة .. وهي أفضل من سرد المعلومات .. ويجب أن يحسن استعمال هذا الأسلوب فئة من الدعاة كتابة وخطابة .

٦- **ولفت الانتباه إلى الاهتمام بقضايا اجتماعية** .. لا يقدر عليه إلا من يتحسس آلام وآمال الناس .. ويملك بصيرة نافذة وقدرة على مخاطبة من حوله .

٧- **والقيام بعمل يثير انتباه الناس .. ثم سؤالهم عن سببه** .. وسيلة بيان طيبة .. ولا يجيدها إلاّ قلة .

وفي الختام نقول : نحن بأمس الحاجة إلى تنوع أساليب الخطاب الإسلاميّ .. وإلى تعدد وسائل البيان .. وهذا العصر يضع في أيدينا وسائل كثيرة .. وهذا من فضل الله على الناس .. وعلينا أن نهيء الطاقات العلمية والفنية بالعدد المناسب والنوعية المناسبة لكي نقوم بواجب تبليغ الرسالة وإرشاد الحيارى إلى سواء السبيل .

عِبَـــرُ قصـتـيــن

١- إسلام أبي ذرّ

روى الإمام البخاري في صحيحه عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ : « لَمَّا بَلَغَ أَبَا ذَرٍّ مَبْعَثُ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ لأَخِيهِ : ارْكَبْ إِلَى هَذَا الْوَادِي فَاعْلَمْ لِي عِلْمَ هَذَا الرَّجُلِ الَّذِي يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ يَأْتِيهِ الْخَبَرُ مِنَ السَّمَاءِ ، وَاسْمَعْ مِنْ قَوْلِهِ ثُمَّ ائْتِنِي .

فَانْطَلَقَ الأَخُ حَتَّى قَدِمَهُ وَسَمِعَ مِنْ قَوْلِهِ ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى أَبِي ذَرٍّ فَقَالَ لَهُ : رَأَيْتُهُ يَأْمُرُ بِمَكَارِمِ الأَخْلاَقِ ، وَكَلاَمًا مَا هُوَ بِالشِّعْرِ . فَقَالَ : مَا شَفَيْتَنِي مِمَّا أَرَدْت . فَتَزَوَّدَ وَحَمَلَ شَنَّةً -قربة بالية- لَهُ فِيهَا مَاءٌ حَتَّى قَدِمَ مَكَّةَ ، فَأَتَى الْمَسْجِدَ ، فَالْتَمَسَ النَّبِيَّ ﷺ وَلاَ يَعْرِفُهُ ، وَكَرِهَ أَنْ يَسْأَلَ عَنْهُ ، حَتَّى أَدْرَكَهُ بَعْضُ اللَّيْلِ ، فَاضْطَجَعَ فَرَآهُ عَلِيٌّ فَعَرَفَ أَنَّهُ غَرِيبٌ ، فَلَمَّا رَآهُ تَبِعَهُ ، فَلَمْ يَسْأَلْ وَاحِدٌ مِنْهُمَا صَاحِبَهُ عَنْ شَيْءٍ ، حَتَّى أَصْبَحَ، ثُمَّ احْتَمَلَ قِرْبَتَهُ وَزَادَهُ إِلَى الْمَسْجِدِ ، وَظَلَّ ذَلِكَ الْيَوْمَ وَلاَ يَرَاهُ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى أَمْسَى فَعَادَ إِلَى مَضْجَعِهِ ، فَمَرَّ بِهِ عَلِيٌّ فَقَالَ : أَمَا نَالَ -أما آن- لِلرَّجُلِ أَنْ يَعْلَمَ مَنْزِلَهُ ؟ فَأَقَامَهُ فَذَهَبَ بِهِ مَعَهُ ، لاَ يَسْأَلُ وَاحِدٌ مِنْهُمَا صَاحِبَهُ عَنْ شَيْءٍ ، حَتَّى إِذَا كَانَ يَوْمُ الثَّالِثِ فَعَادَ عَلِيٌّ عَلَى مِثْلِ ذَلِكَ ، فَأَقَامَه مَعَهُ ثُمَّ قَالَ : أَلاَ تُحَدِّثُنِي مَا الَّذِي أَقْدَمَكَ ؟ قَالَ : إِنْ أَعْطَيْتَنِي عَهْدًا وَمِيثَاقًا لَتُرْشِدَنِّي فَعَلْت . فَفَعَلَ ، فَأَخْبَرَهُ ، قَالَ ، فَإِنَّهُ حَقٌّ ، وَهُوَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، فَإِذَا أَصْبَحْتَ فَاتْبَعْنِي ، فَإِنِّي إِنْ رَأَيْتُ شَيْئًا أَخَافُ عَلَيْكَ قُمْتُ كَأَنِّي أُرِيقُ الْمَاءَ ، فَإِنْ مَضَيْتُ فَاتْبَعْنِي

حَتَّى تَدْخُلَ مَدْخَلِي ، فَفَعَلَ فَانْطَلَقَ يَقْفُوهُ حَتَّى دَخَلَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَدَخَلَ مَعَهُ ، فَسَمِعَ مِنْ قَوْلِهِ وَأَسْلَمَ مَكَانَهُ. فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ : ارْجِعْ إِلَى قَوْمِكَ فَأَخْبِرْهُمْ حَتَّى يَأْتِيَكَ أَمْرِي . قَالَ : وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لأَصْرُخَنَّ بِهَا بَيْنَ ظَهْرَانَيْهِمْ . فَخَرَجَ حَتَّى أَتَى الْمَسْجِدَ ، فَنَادَى بِأَعْلَى صَوْتِهِ : أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّه . ثُمَّ قَامَ الْقَوْمُ فَضَرَبُوهُ حَتَّى أَوْجَعُوه . وَأَتَى الْعَبَّاسُ فَأَكَبَّ عَلَيْهِ ، قَالَ : وَيْلَكُمْ ، أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّهُ مِنْ غِفَارٍ ، وَأَنَّ طَرِيقَ تِجَارِكُمْ إِلَى الشَّأْمِ ؟ فَأَنْقَذَهُ مِنْهُمْ . ثُمَّ عَادَ مِنْ الْغَدِ لِمِثْلِهَا ، فَضَرَبُوهُ وَثَارُوا إِلَيْهِ ، فَأَكَبَّ الْعَبَّاسُ عَلَيْه » .

لقد سقنا قصة إسلام أبي ذر ﷺ بطولها لما فيها من دروس وعبر جديرة بالتأمل والتدبر من قبل العاملين في الحقل الإسلاميّ .. وها نحن نذكر بعض دروس القصة ، سالكين سبيل الإيجاز ، عسى أن يكون فيها ذكرى .

أولاً : إنّ موقف أعداء الله وأصحاب الأهواء من الدعاة إلى الله تعالى يقوم على صد الناس عن الدعوة ، وذلك باستخدام ما بأيديهم من حواجز وصوارف تصد الناس عن الدعاة الصادقين . ونلمس هذا في قول ابن عباس يصف حال أبي ذر حين قدم مكة باحثاً عن الحق : « وكره أن يسأل عنه » . ويبين الحافظ ابن حجر في (فتح الباري – ١٧٤/٧) ما يمكن أن يكون سبباً في كراهية أبي ذر السؤال عن النبي ﷺ فيقول : « لأنه عرف أن قومه يؤذون من يقصده ، أو يؤذونه بسبب قصد من يقصده ، أو لكراهتهم في ظهور أمره لا يدلون من يسأل عنه عليه ، أو يمنعونه من الاجتماع به ، أو يخدعونه حتى يرجع »

وحقيقة أن أعداء الله وأصحاب الشهوات والأهواء يناصبون الدعاة إلى الله تعالى العداء يجب أن تبقى ماثلة في قلوب الداعين إلى الله .. وإدراك هذه الحقيقة يعني أموراً ، أبرزها : أن يسلك الدعاة سبيلاً تقوم على الحكمة وتنأى بهم عن القيام بأعمال غير مسؤولة تعطي خصوم الإسلام مسوغات تصعيد العداء والمواجهة من غير مسوغ شرعي .. ومعرفة المسوغ الشرعي في مجال الدعوة تحتاج إلى علم بالإسلام كما أنزله الله عزَّ وجلَّ، وإلى إدراك متجدد للواقع الذي لا يثبت على حال في كثير من شؤونه ، وإلى قدرة على إسقاط نصوص الإسلام على الثابت والمتغير في حياة الناس .. وهذا يعني أن (الإفتاء) في مجال الدعوة أكبر خطورة من الإفتاء في صور جديدة من المعاملات . والغريب العجيب أن يتحرج كثير من العاملين في الحقل الإسلاميّ من الإفتاء في مسائل تتعلق بالحلال والحرام في أطروحات العصر في مجال المعاملات ، فتراهم يستوضحون عن القضية التي يسألون عنها ، وإذا لم تسعفهم المعلومات في إيضاح الصورة لاذوا بالصمت خوفاً من المسؤولية .. وفي المقابل نرى جرأة على الإفتاء في مسائل الدعوة وطرق مواجهة المحن ، مع العلم أن إصدار الأحكام في باب الدعوة يحمل في طياته مسؤولية كبيرة لكون هذه الأحكام ترتبط بدماء المسلمين وأعراض وأبناء العاملين المخلصين .

ثانياً : وإذا كان خصومة أعداء الله وأصحاب الشهوات والأهواء للدعوة والدعاة حقيقة من حقائق الحياة البشرية .. كان لزاماً على حملة دعوة الحق أن يتخيروا من الوسائل وطرائق العمل ما يدفع عنهم الأذى .. وهذا

ظاهر في الطريقة التي رسمها علي لأبي ذر رضي الله عنهما في إيصاله إلى النبي ﷺ بحيث لا ينتبه إلى ذلك أحد من كفار قريش .

وتحديد طريقة العمل في مجال الدعوة إلى الله يفرض ، أن يتم اعتماد ما يناسب طبيعة الإسلام من أساليب ووسائل .. إذ لا يخفى أن أساليب العمل تترك آثاراً عميقة في النفوس ، وهذه الآثار قابلة لأن تكون صالحة أو فاسدة تبعاً للأسلوب المقرر .

ثالثاً : واختيار طريقة في الدعوة إلى الله عزَّ وجلَّ تجنب العاملين الأذى ، يجب أن يتم على ضوء رؤية جميع الواجبات ، بحيث لا يؤدي ما يتم اعتماده من أسلوب يدفع الأذى إلى شل (الدعوة) ، بحجة أننا مدعوون إلى حماية العمل .. فبتوسيع النظر يتضح أنه ما من دعوة تغييرية يريد أصحابها أن تشق طريقها إلى حياة الناس ، إلا ويجب عليهم دفع ثمن هذا الذي يرومونه .. كما يظهر أن اجتناب جميع أصناف الأذى مع استمرار العمل ، ضرب من الوهم . ولا بدّ أن يقوم العاملون بأعمال تصل بالدعوة إلى الناس وأن يكونوا على استعداد لتحمل النتائج .

وهذا الذي ذهبنا إليه يدل عليه قول وفعل أبي ذر بعد إسلامه : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لأَصْرُخَنَّ بِهَا بَيْنَ ظَهْرَانَيْهِمْ ، فَخَرَجَ حَتَّى أَتَى الْمَسْجِدَ .. » إلى آخر الحديث . وكل هذا يصنعه على مسمع ومرأى من النبي ﷺ . ومن المفيد أن ننقل هنا ما قاله الحافظ ابن حجر في (فتح الباري – ١٧٤/٧) تعقيباً على تصرف أبي ذر رضي الله عنه : « ويؤخذ منه جواز قول الحق عند من يخشى منه الأذية لمن قاله وإن كان السكوت جائزاً ، والتحقيق أن ذلك مختلف باختلاف الأحوال والمقاصد ، وبحسب ذلك يترتب وجود الأجر وعدمه » .

وهذا الكلام من ابن حجر رحمه الله –وبخاصة ما وضعنا تحته خطاً– يقودنا إلى بيان المعاني الآتية :

١– إنّ ما يتم اختياره من طرق وأساليب في مجال الدعوة إلى الله عزَّ وجلَّ يجب أن يكون على أساس من العلم بالإسلام كما أنزله الله عزَّ وجلَّ ، لئلا يتم –عن جهل– اعتماد ما يظن أنه مفيد وهو –عند التحقيق– مضر .

٢– وأحكام الإسلام –في مجال الدعوة وغيره– لا تؤخذ من نص واحد ، إذا في المسألة نصوص أخرى ، فعندئذ تجب دراستها مجتمعة ، وبذلك يكون الاستنتاج أحكم وأسلم .

٣– إنّ (الإخلاص) وحده لا يكفي في مواجهة الباطل وأتباعه .. إذ لا بد من توفر (الصواب في العمل) ، وافتقار العمل إلى أحدهما يعرضه لعدم القبول عند الله عزَّ وجلّ . ومعرفة الصواب تفرض توفر العلم بالإسلام وتوفر المعرفة الكافية بظروف الفترة الزمنية –محلياً ودولياً– التي يمر بها المسلمون . وإنه من الخطر بمكان أن تحصر طرق العمل الإسلاميّ باجتهاد فرد أو أفراد كانت لهم اجتهادات ومواقف في زمن مضى ، ثم تغيرت الظروف ، ولكن الذين جاؤوا من بعدهم لم يلاحظوا تغير الزمان ، وظنوا أن مخالفة أولئك الأعلام حط من أقدارهم . والذي نراه تعبر عنه الحكمة السائرة : (رحم الله امرءاً عرف زمانه واستقامت طريقته) .

رابعاً : إنّ الداعية إلى الله هو حامل مصابيح الهداية إلى قلوب الناس ، وهذا يدفعه إلى بناء جسور التعارف والمودة والإحسان مع الذين يعيشون في محيطه ، فهو يفارق الظالمين أنفسهم في مواضع الظلم والانحراف ، ويبقي على حسن الصلة بهم من خلال الأعمال والعادات التي لا تنكرها شريعة الله عزَّ وجلَّ ، فهذا علي ﷺ يرى في المسجد الحرام رجلاً غريباً فيدعوه إلى بيته ويستضيفه ثلاثة أيام –كعادة العرب يومئذ– لا يسأله خلالها من هو وماذا يريد ؟ . فلما انصرمت أيام الضيافة دار بينهما الحوار الوارد في الحديث .

وممارسة علي ﷺ حسن الصلة بالناس ، وإن كانوا غير مؤمنين ، ترشدنا إلى :

ضرورة أن يطبق المسلم كل ما يستطيع تطبيقه من أخلاق الإسلام مع الناس ، مؤمنهم وكافرهم ، ففي هذا من الخير الكثير .. وهذا الدرس يجب أن يتدبره العاملون في الحقل الإسلامي ، لأن كثيرين منهم يعمدون إلى قطع الصلة بمن حولهم بحجة أنهم مبتدعون أو منحرفون .. وينسى هؤلاء المخلصون أنهم دعاة إنقاذ ، وعملية الإنقاذ لا تتم من خلال الجسور المنسوفة ، وإنما عبر الجسور القائمة على حسن الصلة والإحسان وسائر أعمال البر . ويخفى على هؤلاء المخلصين ضرورة تفويت فرص فرض العزلة على العاملين والتي يسعى إلى تحقيقها أعداء الله عزَّ وجلَّ ، لئلا يصل تأثير الدعوة إلى نطاق عامة المسلمين ، فإذا قام فريق من العاملين في الحقل الإسلامي بنسف الجسور مع المحيط ، فإن هذا يساعد في عملية التصفية الموجهة إليهم من قبل القوى المتنفذة .

إنّ هناك فرقاً بين الداعية والقاضي : فالقاضي يهمه من المسألة التي يعالجها أن يقول هذا حق وهذا باطل ، وهذا ظالم وهذا مظلوم ، أما الداعية فبعد تعرفه على الظلم والانحراف ، يعمل على إزالة الظلم وتقويم الانحراف محتسباً ذلك عند الله عزَّ وجلّ .

٢- مُعــاذ وسُــليم

« كان معاذ يصلي مع رسول الله ﷺ العشاء ، ثم يرجع فيصلي بأصحابه ، فرجع ذات ليلة فصلى بهم ، وصلى فتى من قومه (من بني سلمة يقال له سُلَيْم) ، فلما طال على الفتى صلى في ناحية المسجد ، وخرج وأخذ بخطام بعيره وانطلق ، فلما صلى معاذ ، ذُكر ذلك له ، فقال : إنّ هذا به لنفاق ، لأخبرن رسول الله ﷺ بالذي صنع ، وقال الفتى كذلك : وأنا لأخبرن رسول الله ﷺ . فغدوا على رسول الله ﷺ ، فأخبره معاذ بالذي صنع الفتى ، فقال الفتى : يا رسول الله ، يطيل المكث عندك ، ثم يرجع فيطيل علينا . فقال رسول الله ﷺ : « **أَفَتَّانٌ أَنْتَ يَا مُعَاذُ ؟!** » ، وَقَالَ لِلْفَتَى : « **كَيْفَ تَصْنَعُ أَنْتَ يَا ابْنَ أَخِي إِذَا صَلَّيْتَ ؟** » . قَالَ : أَقْرَأُ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ ، وَأَسْأَلُ اللَّهَ الْجَنَّةَ ، وَأَعُوذُ بِهِ مِنَ النَّارِ ، وَإِنِّي مَا أَدْرِي مَا دَنْدَنَتُكَ وَدَنْدَنَةُ مُعَاذ ! . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ

ﷺ : « **إِنِّي وَمُعَاذًا حَوْلَ هَاتَيْنِ ، أَوْ نَحْوَ هَذَا** » ، قَالَ : فَقَالَ : وَلَكِنْ سَيَعْلَمُ مُعَاذٌ إِذَا قَدِمَ القَوْمُ وَقَدْ خُبِّرُوا أَنّ العَدُوَّ قَدْ أَتَوْا . قَالَ فَقَدِمُوا فَاسْتَشْهَدَ الفَتَى ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بَعْدَ ذَلِكَ لِمُعَاذ : مَا فَعَلَ خَصْمِي وَخَصْمُكَ ؟ قَالَ : يَا رَسُول اللهِ – صَدَقَ اللهَ ، وَكَذَبْتُ – اسْتَشْهَدَ » رواه البيهقي وغيره بسند صحيح ، وأصل القصة في الصحيحين ، والزيادة لأحمد .

قصة معاذ بن جبل مع سليم رضي الله عنهما من القصص الطريفة التي تتضمن دلالات فقهية –بالمعنى الاصطلاحي الذي اكتسبته كلمة (فقه) بعد عصر النبوة– كما تحمل في ثناياها توجيهات عميقة في أصول التعامل بين المسلمين ، وما يجب الالتفات إليه في عملية التربية والتعليم .

وسنقصر كلامنا على طرف من الجوانب الأخلاقية التربوية التي توحي بها القصة ، متوخين الإيجاز ، والله الموفق .

أين بدأ الخلل ؟

إنّ قصة معاذ مع سليم تعلمنا أنه حين تجتمع فئة من المسلمين على القيام بعمل ما ، ثم تختلف المواقف وتتباين التصرفات في مسألة من المسائل ، فإنه لا يصح أن يُقوِّم مسلم مواقف إخوانه أو تصرفاتهم بمعزل عن تقويم مواقفه وتصرفاته .. فربما كانت آراؤه أو تصرفاته سبباً في بروز ما ينكره من إخوانه ..

والبحث عن المصدر الأول الذي انبعث منه الخلاف مهم وضروري ، ومعرفته تساعد –إذا توفر الإخلاص– في نزع الفتيل وعودة المياه إلى مجاريها . وعدم معرفة أين الخلل يؤدي إلى أن تقتات الأخطاء من الأخطاء ، وبذلك يتسع الخرق على الراتق .

النية الطيبة والخطأ

وتؤكد القصة قاعدة هامة في أصول التعامل بين المسلمين حين تتعدد مواقفهم في مسألة واحدة ، وهي : ينبغي أن لا ينظر المسلم إلى نيته فيطمئن إلى سلامتها يهمل التدقيق في عمله .. فلربما كان عمله مفتقراً إلى الصواب .. وأن عدم الصواب في عمله دفع إخوانه إلى فعل ما ينكره عليهم .. فالنية الصالحة لا تسوغ الأعمال البعيدة عن الحكمة والصواب .. كما أن الخطأ في تصرف ما ليس دليلاً على فساد الطوية .

العلم الشامل المتوازن

وتعلمنا القصة أنه عند الحكم على تصرفات الآخرين لا يصح أن يتعلق مسلم بظاهر نص شرعي إذا كان في المسألة نصوص شرعية أخرى .. ففي هذه الحالة يجب أن يتعلم المسلم نسبة كل نص إلى غيره من النصوص .. كما يجب عليه أن يتعلم متى يعمل بكل نص ، لئلا يأتي من الأعمال ما يظن أنه مشروع أن يأتي به في جميع الأوقات ومختلف الظروف .. وهو على التحقيق ليس كذلك .. وهذا الصنيع يشكل البيئة الصالحة لظهور ونمو الخلافات .. وكثيراً ما يقع الهجوم على النوايا ، حين وقوع الخلاف ، بدلاً من اختبار المعلومات وفتح باب الحوار الهادئ بحثاً عن الصواب .

إنّ المعاني التي ذكرناها آنفاً يوحي بها تصرف معاذ مع سليم رضي الله عنهما :

– فمعاذ أطال الصلاة .. وسليم لم يحتمل ذلك .

– ومعاذ يعلم أن من علامات المنافقين : « ... **وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاةِ قَامُوا كُسَالَى** ... » [النساء: ١٤٢] فمال إلى رمي سليم بالنفاق ، ولم يكن يعلم أن السنة تدعو إلى أن يتجوز الإمام في القراءة .. لئلا يفتن فئات كالعاجز وذي الحاجة .. وهم صادقون في إيمانهم .

– ولكن معاذاً وسليماً كانا مستعدين للحوار بحثاً عن الصواب .

فليت شعري كم في دنيا المسلمين اليوم من مشكلات قاتلة ، فرقت قلوباً ، وبعثرت جهوداً ، ترجع أسبابها إلى :

- رؤية أخطاء الآخرين فقط ، والعجز عن رؤية أخطاء الذات!!
- تسويغ الأعمال بالنية الطيبة مع البعد عن الحكم على أعمال الآخرين بالمقياس نفسه !!
- الاعتماد في التقويم على الجزئية في العلم ، مع فقدان النظرة الشمولية المتوازنة!!

النصوص الشرعية أكبر من الرجال

ومن أهم ما تشير إليه القصة وجوب رد الأمور المتنازع فيها إلى الله تعالى وإلى الرسول ﷺ ، وليس إلى آراء الرجال سواء تمثلت هذه الآراء في رجل أو هيئة .

وهذا الكلام لا يحمل في طياته دعوة إلى الاستخفاف بآراء علمائنا السابقين أو المعاصرين ، ولا بالعاملين الصادقين في مجال الدعوة إلى الله عزَّ وجلّ .. وإنما يدعو إلى العمل بالنظرة الصحيحة إلى العلماء والدعاة المخلصين في جميع الأعصر ، والتي يلخصها قول القائل :

والطعن فيهم منكرُ من السفيه يصدرُ
لكننا لا نلزمُ بكل قول لهمُ
لأن ذاك لا يتمْ إلا لمختار عصمْ

هذه الحقيقة يجب أن تتجاوز الألسنة وتستقر في القلوب والمشاعر ، والدليل على استقرارها في القلوب يكون برد جميع الأمور المتنازع فيها –إذا كانت من باب الحق والباطل ، والصواب والخطأ –إلى نصوص الشرع وليس إلى آراء الرجال أو الهيئات ، فهؤلاء قد يفوتهم شيء من العلم ، أو لعل الظروف التي عاشوها قد تغيرت ، وبالتالي فإن ما صدر عنهم يحتمل أن يكون في بعضه الخطأ أو القصور .. لذلك نؤكد على أن النصوص الشرعية أكبر من الرجال ، وحري بالعاملين في مجال الدعوة إلى الله عزَّ وجلَّ أن يعملوا بهذه الحقيقة

في القضايا المختلف فيها ، وأن يُعلِّموا من حولهم بالقدوة العملية ما قاله الإمام مالك رحمه الله : (**إنما أنا بشر أخطئ وأصيب ، فانظروا في رأيي فكل ما وافق الكتاب والسنة فخذوه ، وكل ما لم يوافق الكتاب والسنة فاتركوه**) وقوله : (**ليس أحد بعد النبي ﷺ إلا ويؤخذ من قوله ويترك ، إلا النبي ﷺ** .

الميزان الشرعي للرجال

ونقف أخيراً عند سؤال رسول الله ﷺ سليماً : كيف تصنع يا ابن أخي إذا صليت ؟ وجواب سليم رضي الله عنه الصريح ، لنأخذ درساً في أصول التربية والتعليم وهو : إنّ على الدعاة إلى الله عزَّ وجلَّ أن يدركوا أن المستجيبين للدعوة مختلفون في مواهبهم وإمكاناتهم الجسدية وقدرتهم على التحصيل العلمي .. وأن الحكمة تقضي أن يعلم الداعية الحد الأدنى الذي يجب على المكلف تحصيله في كل عمل مشروع ، فيطالب به الجميع ، ثم يبقى المجال مفتوحاً أمام الراغبين والقادرين على الاستزادة من العلم ، ومنها حفظ النصوص . وواجب الداعية هو تفجير الطاقات وجمع الجهود وتوجيهها إلى ساحة العمل الإيجابي الهادف على أساس من التكامل بين مختلف الاستعدادات .

وإذا غابت هذه المعاني عن الداعية فإنه يقع في أسر (وحدة المقياس) فيحزن إذا لم ير جميع من حوله في مستوى واحد من العلم وبذل الجهد والتضحية . وتحقيق هذا الأمر مستحيل .. والله أعلم .

ملاحظات :